الفصل السادس
الفكر الاستراتيجى العالمى

الفصل السادس
الفكر الاستراتيجي العالمي

المدرسة الروسية

تابعت المدرسة الروسية تقلباتها بين طريق وطني حصرا ، وطريق فيه بصمات أجنبية [1]. الجنرال Nicolas Medem في كتابه " Obozrenie isvestnjchich pravil i sistem strategii" (دراسة حول القواعد والأنظمة المعروفة للإستراتيجية) صادر في عام 1836 ،يحلل كتابات كل من Lloyd, Bülow, Jomini, Clausewitz ؛ ثم في كتابه Taktika في عام 1837 ، يعلن العودة إلى Souvorov الذي سينتشر في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر. أما العقيد M .I Bogdanovich فقد كرّس كتابه Zapiski strategii (دراسة الإستراتيجية) 1847 ،من أجل دراسة نابليون.

ثم يأتي الجنرال Astafev ليحلل "فن الحرب الحديثة"، في كتاب تم وصفه بأنه من التيار الإصلاحي الذي ظهر بعد الهزيمة ،وقد صدر الكتاب تحت إشراف Dimitri Milioutine ،وهو مؤرخ عسكري معروف في روسيا ووزيرا للحرب في عام 1861 وحتى 1881. وأيضا سنقرأ مع الجنرال Okounieff كتابه "مذكرات حول مبادئ الإستراتيجية" 1831 ،وتعليقاته الإستراتيجية حول حملة عام 1812 ،هذه التعليقات التي ترجمت إلى الفرنسية في عام 1841 ،وإلى الألمانية في عام 1876.

رابعا ـ المدرسة الفرنسية.

يلاحظ أن الإنتاج الاستراتيجي الفرنسي كان تحت هيمنة كتاب ألفه المارشال Marmont تحت عنوان "روح المؤسسات العسكرية" وظهر في

---

[1] - انظر : Carl Van DYKE، " Russian Imperial Military Doctrine and Education"، صادر عن Westport Greenwood Press، 1990 و Walter Pinter، " Russian Military thought :the Western Model and the Shadow of Suvorof"، بحث في مجلة Makers of Modern Strategy.

عـام 1845 ثـم أعيـد نشـره في عـام 1865. ذهـب اليـوم ضـحية للنسـيان، ولكن عملـه يتركـز في الواقـع حـول النظريـة العامـة للفـن العسـكري، تنظيم الجيوش، العمليـات المختلفـة للحـرب، وأخيرا فلسـفة الحرب [2]. عمليا، السنوات الممتدة من 1815 على 1870، عرفت استقرارا سياسيا في فرنسا [3]. فالنقاش حول الجيش لم يكن على مستوى عميق أو واسع.مع بـدايات القـرن العشـرين سـتعرف فرنسـا إنتاجـا آخـرا للعلـوم الإستراتيجية، سوف نتطرق إليه في الفقرات القادمة.

ثامنا ـ القرن التاسع عشر و مأسسة العلم العسكري.

بدأت التغيرات تظهر على التفكير الإستراتيجي وفي كل أبعاده بعد عـام 1870. فبعـد أن كـان هـذا التفكير مقتصـرا علـى أقليـة مـن الضـباط والجنـرالات "باسـتثناء ألمانيا"، أصـبح عنصـرا أسياسـيا مـن عناصـر تكـوين الضـباط الكبـار في الجـيش. لهـذا السـبب انتشـرت المـدارس العسـكرية في معظـم الـدول والـتي شـجعت علـى مـا يسـمى التفكير الاسـتراتيجي. أيضـا بعـد عام 1870 ازداد عدد المطبوعات و الكتب الإستراتيجية في معظم أنحـاء أوربـا بالإضافة للمخطوطات و المراجع الكبيرة [4]. ولكن علينا القول هنـا، أن معظـم

---

[2]- كتب عن هذا المارشال، الكاتب Bruno Colson في كتابه الصادر بالفرنسية " Maréchal Marmont, De l'esprit des institutions militaires"، باريس، دار نشر Economica، المكتبة الإستراتيجية 2001.

[3]ـ هناك كتابات أخرى بالفرنسية : أهمها Sainte-Hélène و خاصة ما تمت كتابته منها بإيعاز من نابليون الثالث نفسه مثل " ملاحظات لنابليون الأول" وهو من ستة أجزاء، صدر في باريس عام 1867.

[4]ـ في فرنسا مثلا،كان هناك " صحيفة العلوم العسكرية، و " القارئ العسكري"،ثم أضيف " المرجع العسكري للجيوش الأجنبية"في عام 1871، بعد ذلك ظهر "مرجع تاريخ قيادة الأركان للجيوش" في عام 1899، وأيضا "المرجع العسكري العام" في عام 1907.

المطبوعات أعطت مساحات كبير للحديث عن الجغرافية العسكرية والتكتيك، لكن التقدم نحو العلوم الإستراتيجية كان بطيئا.

ـ إعادة اكتشاف الإستراتيجية.

بعد تراكم الدراسات حول التكتيك، بدأت وفي عام 1880 تظهر دراسات أخرى تعطي الفكر الإستراتيجي أبعادا أخرى أعمق و اشمل. ففي ألمانيا أخذ الفكر الإستراتيجي هذه الأبعاد الجديدة مع المارشال Colmar von der Goltz وهو من أشهر الكتاب في تلك المرحلة لاسيما في كتابه " Das Volk in Waffen" (الشعب في الجيش) والذي صدر عام 1883، ثم ترجم إلى الفرنسية ام 1884، الإنكليزية 1887، الإسبانية، التركية، السويدية 1887. أيضا كتاب العقيد Wilhelm von Blume " DieStrategie" 1882، وترجم إلى الفرنسية في عام 1884، السويدية عام 1887، الروسية عام 1899.

لكن الحوار حول الإستراتيجية بعد ذلك أخذ طابع الجدل وأحيانا الصراع الفكري مع كتاب " تصارع الإستراتيجيات" الذي وضعه المؤرخ Hans Delbrück والذي يفسر فيه الحروب التي قام بها فريدريك الثاني. ومع بداية عام 1910 سنعود بسرعة مع الجنرال Friedrich von Bernhardi إلى التأليف حول الأفكار الإستراتيجية في كتابه " Vom heutigen Kriege" (الحروب الحالية) والصادر في عام 1912، ترجم إلى الروسية عام 1912، الإنكليزية عام 1912، الفرنسية عام 1913، اليابانية 1914. عمليا، الكتابات الإستراتيجية سوف تنتشر في معظم القارة الأوربية و الولايات المتحدة : في بريطانيا مع W.H. james وكتابه " Modern Strategy" صادر عام 1904؛ H. Tovey وكتابه " Elements of Strategy"؛ ثم F.N Maude وكتابه " The Evolution of Moderne Strategy from the XVIII Century" صادر في عام 1905. وفي الولايات المتحدة مع JohnBigelow في كتابه" PrinciplesofStrategy"

الصادر في عام 1891؛ ثم Arthur Wagner في كتابه "Strategy" الصدر عام 1903.

تاسعا ـ الإستراتيجية في القرن العشرين.

بدأ في عام 1914 نقاش حاد حول التغيرات الجذرية للفن العسكري، مع هيمنة مسبقة للجانب العملي على النظري. والعديد من الملفات عن هذه الفترة تشهد بالأفكار التي فرضتها الأحداث [5] ، خاصة أن معظم العسكريين لم يكن لديهم الوقت للكتابة، فإما كانوا على الجبهات أو في قيادة الأركان الخاصة بالعمليات العسكرية. وهذا عمليا ما يفسر الغياب شبه الكلي للمنشورات و المطبوعات العسكرية في تلك الفترة. ومع بدء الحرب العالمية الأولى كانت العلوم الإستراتيجية قد أصبحت طيّ النسيان، ولكن هل يعني أنها اختفت تماما ؟

في الواقع، الكثير من المفكرين والكتاب تحدثوا عن العلوم الإستراتيجية ولكن ليس في كتب أو مراجع، بل في مقالات صحفية ظهرت هنا وهناك، وفي بعض الكتب غير العسكرية أو غير المتخصصة. من بين هؤلاء كان البريطاني Charles الذي كتب في صحيفة Times وقد قدم فكرا إستراتيجيا حقيقيا في بريطانيا والولايات المتحدة. أيضا Spenser Wilkinson الذي ترك العمل الصحفي في عام 1909 ليصبح أستاذ "التاريخ العسكري" في جامعة أكسفورد، وقد كتب أثناء الحرب " First lessons in War 1914"، ثم " Gouvernment and the War 1918".

في ألمانيا، قام Lucia Frost بإدخال بعض التعليقات حول أعمال Clausewitz في مرجع يهتم بالأدب بشكل عام. وفي فرنسا، يمكننا متابعة دراسات عسكرية منتظمة في المرجع " La Revue des deux-mondes،

---

[5]- من هذه الملفات والكتابات، كتاب الفرنسي Lucas والذي كان تحت عنوان "تطور أفكار التكتيك في فرنسا و ألمانيا خلال الحرب ما بين 1914ـ1918"، صدر في باريس،دار نشر Berger-Levrault، 1924.

La Revue de Paris، La Revue universelle... . في سويسرا، كتب العقيد Ferdinand Feyler مجموعة من التعليقات حول الحرب العالمية الأولى منها (مدخل إستراتيجي عام 1915؛ و مشاكل إستراتيجية مستفادة من الحرب الأوربية عام 1918). ولا بد من الإشارة هنا إلى "المرجع العسكري السويسري" الذي بقي له تأثير مهم، كما هي مجموعة "المراجع العسكرية الأمريكية".

مع انتهاء عام 1918، كانت المفاهيم الإستراتيجية النظرية قد أعيد بناؤها. فكل القناعات و التأكيدات السابقة تعرضت للانهيار مع نهاية الحرب الأولى. أما سيتركز من هذا التاريخ بين الذين يأخذون بالمذهب العسكري الجديد حول الجبهة المستمرة وتفوق العمل الدفاعي ،و المجددين الذي يريدون استثمار الإمكانيات الجديدة المفتوحة بواسطة الأسلحة الجديدة التي استخدمت أثناء الحرب،وأهمها الدبابة والطائرة [6].

. الفكر الإستراتيجي في الثلاثينات: بين التجديد و الجمود.

في الثلاثينات من القرن الماضي بدا وكأنه هناك نزعة للتشدد فيما يتعلق بهذا الفكر.ففي إيطاليا كتب الجنرال Visconti-Prasca كتابا أخذ شهرة كبيرة تحت عنوان " La Guerra decisiva" (الحرب الحاسمة) في عام 1934 ،ترجم للألمانية والفرنسية في عام 1935. يدعو الجنرال في هذا الكتاب إلى العودة لعقيدة الهجوم. وفي فرنسا أيضا لم يتوقف التيار المتشدد في الفكر الإستراتيجي عن الظهور كما يتبين ذلك مع كتاب الجنرال Chauvineau بعنوان "هل الاقتحام مازال ممكنا؟" وقد صدر في عام

---

[6]- ظهرت العديد من الدرسات حول هذا الموضوع وبلغات أوربية مختلفة . نذكر منها : "Barry R. Posen، The Sources of Military Doctrine, France, Britain and Germany between the World Wars"، Ithaca، Cornell University Press، 1984. أيضا ، "Brian Holden Reid، Military Thinker"، لندن، دار نشر Macmillan، 1987. و بالفرنسية نقرا مع الجنرال "Camon، La Motorisation de l'Armée et la manœuvre stratégique"، صادر في باريس،دار نشر Berger-Levrault،1926.

1939 ، وهو مثال جيد على عودة المحافظين إلى داخل هذا الفكر.

أيضا في ألمانيا ، فقد أخذ هذا الاتجاه توسعا كبيرا مع العديد من منظريه وأهمهم: Wilhelm Reinhardt, Alfred Krauss,Waldemar von Erfurth, Herman Foertsch. وفيما يتعلق بعقيدة الهجوم، فقد أحدث الألمان تطورا كبيرا بعد تصنيعهم وامتلاكهم بشكل كبير لكل من الطائرة و الدبابة. ونذكر هنا أن الإستراتيجيين الألمان تأثروا كثيرا بالمنظرين الإستراتيجيين البريطانيين مثل Azar Gat [7] . أما في روسيا فقد حاول السوفييت تطوير نظرية أصيلة وخاصة بهم. والكاتب الأكثر شهرة في هذا المجال كان الجنرال Alexandre Svechin في كتابه " Strategija" الصادر عام 1926. ويصنف اليوم كمؤلّف كلاسيكي. ساهم كتابه بتأسيس ما يسمى بالمذهب"الواقعي"، وقد دعم الماركسي الشهير "تروتسكي" هذا المذهب قائلا :" لا يمكننا بناء قاعدة للحرب مع الماركسية".

عمليا اصطدم هذا المذهب ومعه تروتسكي بكتابات Mihail Frounze المدعوم من قبل المارشال Toukhatchevski الذي يدعو إلى "مذهب عسكري واحد لا يتغير"، والذي يجب أن يكون " التعبير عن الإرادة الواحدة للطبقة الاجتماعية في السلطة". هاجم Toukhatchevski خصومه من الجانب الإيديولوجي مما أدى فيما بعد لتصفيته ومعه أيضا Svechin. في عام 1939 ،وصل الفكر الإستراتيجي إلى حالة مختلفة تماما عما كان عليه في عام 1914 ، حيث لم يعد هناك إجماع عقيدي، بل على العكس أصيب بفجوة كبيرة وقعت بين المحافظين و المحدثين.

- الفكر الإستراتيجي خلال الحرب العالمية الثانية.

الحرب التي اندلعت في سبتمبر 1939 أحدثت انقلابات جذرية في

7- Azar GAT ، " British Influence and the Evolution of the Panzer Arm : Myth or Reality ?"، صادر في جزأين.

المذاهب الإستراتيجية التي كانت سائدة بين الحربين. فالخطط الإستراتيجية لم تعد على مستوى حرب صغيرة أو كبيرة بل أصبحت على مستوى العالم ككل، ومن أهم أسباب هذا التغير هو التطور الحاصل في جميع صنوف الأسلحة المستخدمة. إذا أصبحت الأسلحة تفرض قوانينها ، أما الإستراتيجيات فتجرب جميعها في ميادين المعارك. مع ذلك، التفكير و التنظير الإستراتيجي لم يختف من البلدان الأوربية، حيث استمرت العديد من المراجع والمطبوعات الإستراتيجية النظرية بالظهور خلال الحرب.

إن الحدث الأهم الذي عرفته الحرب الثانية هو الصعود القوي للولايات المتحدة الأمريكية.وهذا ما ترافق أيضا في ميدان التفكير الإستراتيجي النظري. ومن المعروف أن هذا البلد لم يكن بعد قد أنتج تلك المراجع الكبرى في العلوم الإستراتيجية، طبعا إذا استثنينا Mahan. خروج الولايات المتحدة منتصرة في الحرب الثانية جعلها تهتم كثيرا بالميدان النظري للعلوم الإستراتيجية ولاقى هذه الاهتمام اتساعا كبيرا على المستوى العالمي. فقد بدأت الجامعات الأمريكية بوضع البرامج البحثية التي تقرأ وتحلل الفكر الإستراتيجي الأوربي: مثلا Edward Mead Earle أطلق دراساته حول كبار الإستراتيجيين الأوربيين في كتاب له تحت عنوان " Makers of Strategy" صدر في عام 1943، وترجم للفرنسية في عام 1982، وقد استمر هذا المرجع نصف قرن من الزمان كأحد أهم المراجع في هذا المضمار.

أيضا Stephen Possony أدار برنامجا ضخما للترجمة لجميع الإستراتيجيات الكلاسيكية. والعددي من المحللين درسوا تحولات وتغيرات الحروب البرية و البحرية. ومن هنا بدأت تظهر ملامح تيار جديد في العلوم الإستراتيجية، هذا التيار سيؤسس لما سنسميه فيما بعد بالجيواستراتيجية.

ويمكن القول هنا، إن القوة العالمية للولايات المتحدة ليست فقط وليدة ظروف معينة، بل هي أيضا ناتجة عن برنامج ناضج من التفكير

والبحث قبل أن يوضع في التنفيذ. حيث بالنسبة لهم النظرية توجه وتغني التطبيق العملي.

الإستراتيجية كمنهج وطريقة

1. بين النموذج السياسي و النموذج العسكري.

عبر التاريخ الطويل للفكر الإستراتيجي نكتشف التغيير أو الاضطراب بين ما يمكن ان نسميه بالنموذج السياسي و النموذج العسكري. الأول يربط الإستراتيجية ببعد سام ومتفوق هو البعد السياسي، و بالقيادة العامة للحرب، بينما الثاني يتمركز ضمن إطار صارم من تنظيم الجهاز العسكري وقيادة العمليات و المعارك.هذه الثنائية تم التنظير لها في القرن العشرين مع التمييز بين الإستراتيجية الكبرى أو العامة، و القيادة الدبلوماسية - الإستراتيجية و الإستراتيجية العملياتية. ولكن في الواقع هذا التمييز وجد منذ القرن الثامن عشر، أي منذ ظهور الفكر الإستراتيجي.

أيضا، هذه الثنائية ستوجد في العلوم الإستراتيجية المعاصرة. Jomini كان قبل كل شيء مفكرا عسكريا كما تشهد بذلك عناوين أولى مؤلفاته: " تحليل العمليات الكبرى" ، " التاريخ العسكري لحروب الثورة". بينما نجد Clausewitz يربط بشكل واضح بين الحرب ونهاياتها السياسية. في الواقع، إرث Jomini سيهمن على الفكر الإستراتيجي طيلة القرن التاسع عشر، أما أولوية الفصل بين السلطة السياسية و القيادة العسكرية ستقود إلى انتصار النموذج العسكري حتى عام 1914. والسبب أن القلق الوحيد كان في كيفية الانتصار في حقل المعركة من غير الأخذ بالحسبان لمصطلحات السلام التي ستهتم بها فيما بعد السلطة السياسية.

سنرى أن النموذج السياسي في الإستراتيجية سيعود للظهور مع أواخر القرن التاسع عشر، عندما بدأ الكتاب يفكرون بما يسمى الحرب الصناعية والإيديولوجية. أيضا البعد السياسي سيظهر عند الكاتب von der Goltz في كتابه " الأمة المسلحة". ما بين الحربين العالميتين كان هناك اقتسام

للنزعتين السياسية والعسكرية، لكن النزعة العسكرية كانت أكثر هيمنة لاسيما مع الاختراعات العسكرية الجديدة (الطائرة، الدبابة، الغواصات). أما القطيعة الحقيقية بين النموذجين كانت بعد عام 1945، حيث ظهرت قوة النموذج السياسي، وكان هذا شيئا طبيعيا بعد الوصول إلى اختراع القنبلة النووية حيث منعت التفكير بوسائل لها غايات عسكرية فقط. هذه الأولوية للسياسة بقيت حتى اليوم، حتى ولو أن بعض الكتاب العسكريين حاولوا إبقاء فكر يستلهم التكتيك مبعدين منه البعد السياسي.

2ـ إيديولوجية و إستراتيجية.

إن عودة النموذج السياسي وبقوة على الساحة، طرحت سؤالا جديدا طالما تم تجاهله، وهو العلاقات بين الإيديولوجية و الإستراتيجية. في البداية، المعرة الإستراتيجية تم إدراكها كجزء أساسي من عملية تقنية، أما كجزء من إيديولوجية عامة للمجتمع، فلم تأخذ قيمتها سوى بشكل بسيط جدا. ونكتفي بالإشارة هنا إلى أن أحد كبار الإستراتيجيين مثل Clausewitz تأثرا كثيرا بالمفكرين الألمانيين هيغل و فيخته وكبار المؤلفات الفلسفية في عصره. ويعتقد بعض مؤرخي علم الإستراتيجية أنه كان استثناءا من بين الكتاب الإستراتيجيين في ذلك الوقت.

اليوم مع تعيق الأبحاث والدراسات يمكننا فهم السياق الأيديولوجي التي ظهرت فيه النظريات الإستراتيجية، ثم تطورت وتراجعت [8]. اليوم أيضا نحدد الاختلاف بين المعنى الذي يكون إستراتيجيا خالصا للمذاهب التي ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر والتي تركزت على الهجوم، والإيديولوجية الهجومية التي استولت على العقول والنفوس. إذا الإستراتيجية توقف علن أن تكون معرفة "روحية" لها سمو وتفوق، لتدخل ضمن البيئة التي تعيش فيها وتصبح جزءا منها. ربما يكون من الضروري معرفة التأثيرات التي مورست

---

[8]ـ انظر كتاب " صوت الإستراتيجية"، صادر بالفرنسية ،تأليف Lucien Poirier.

على هذا الكاتب أو ذاك، ولكن هذه المعرفة لا تكفي للقول أن كاتب إستراتيجي معين استطاع بناء نظرية أو مذهب إستراتيجي فقط لأنه قرأ فيلسوفا أو مجموعة من المؤلفات الفلسفية، لأن التأثيرات الإيديولوجية والفلسفية، لوحدها، لا يمكنها أن تبني نظاما أو نسقا فكريا.

بالإضافة لذلك، حتى ولو اعترفنا بتعدد وكثرة التأثيرات الخارجية، أيضا لا يمكننا القول أنها بديل ع تفكير وتجربة الإستراتيجي أو الكاتب الإستراتيجي، كما أن النظريات الإستراتيجية أو المذاهب الإستراتيجية ليست انعكاسا بسيطا لإيديولوجية عامة سائدة.

3ـ المدارس الإستراتيجية.

بالإضافة للتعدد الذي لا يمكن تجنبه في تيارات الفكر الإستراتيجي، يمكننا أيضا تمييز ثلاثة مدارس كبيرة ظهرت بشكل متعاقب وهي ما تزال موجودة:

1ـ المدرسة الكلاسيكية، وتتركز حول قيادة الحرب، وتجمع كل المنتمين إلى المفهوم التقليدي للحرب حول نموذج واحد : هو النصر. ترى هذه المدرسة أن الإستراتيجية هي فن الجنرال وهي معرفته التي يتمتع بها كقائد أو كعبقري، معرفة تسمح له وتحدد مدى استعداده للنصر أو الهزيمة.

2ـ المدرسة الكلاسيكية الجديدة، وظهرت في نهاية القرن التاسع عشر، وقد ساهم في ظهورها تقدم العلوم الاجتماعية و الدراسات العلمية.هذه العلوم أعطت بعدا جديدا ووعيا للظروف والبيئة التي يمكن أن تحيط بالإستراتيجية. بقي نموذجها يستند على مفهوم تحقيق النصر، ولكن الحرب هي من الآن فصاعدا تدخل في أفق صراعي أكسر ضخامة واتساعا، كأن يكون لدينا إستراتيجيات للسلام ليس فيها بعد عسكري.من أهم أعلامها الأميرال Castex في مرحلة ما بين الحربين العالميتين، و Bernard Brodie في الولايات المتحدة الأمريكية، وأخيرا Beaufre في فرنسا.

3ـ المدرسة الحديثة، لم تتطور هذه المدرسة بشكل حقيقي إلا بعد عام 1945.ترك هذه المدرسة نموذج النصر الذي تسعى الحرب لتحقيقه، وبدأت تقرأ الإستراتيجية كعلم اجتماعي لا يمكن وضع حدود له فقط داخل حقل الصراع و المعارك.هذه المدرسة أو الإستراتيجية الحديثة كانت عملا أو نتيجة لباحثين مدنيين، أيضا شارك فيها العديد من العسكريين. إشكالية هذه المدرسة كانت في التمييز بين هؤلاء الذين بالفعل جددوا نظرية الإستراتيجية كما هو الحال مع Thomas Schelling في الولايات المتحدة أو الجنرال Lucien Poirier في فرنسا ؛ وأولئك الذين يكتفون بخطاب يستند على أفكار قديمة.

إن الاختلاف و الانقسام حول مفهوم الإستراتيجية في عالمنا المعاصر ليس إلا انعكاسا للانقسام والاختلاف حول النظام الاجتماعي بأكمله وخاصة في قرن عرف تغيرات جذرية وكبيرة على مستوى البشرية جمعاء.

أولا ـ الإستراتيجية كنظرية ومذهب.

يجمع الكثير من مؤرخي الإستراتيجية على أن المفاهيم التي ظهرت حولها هي ناتجة عن الفكر الاستراتيجي وعن الإستراتيجية كعلم. أو بشكل آخر، الإستراتيجية هي معرفة في خدمة الفعل أو التطبيق للإستراتيجية كفن.عمليا ، العلم الاستراتيجي يتألف من جانبين مختلفين أو متميزين عن بعضهما وقد دعاهما Foch بالنظرية والمذهب [9].

1ـ النظرية.

بشكل عام النظرية تهدف إلى تعميق مفاهيم و مناهج معينة، وتريد الوصول إلى معرفة يمكن استخدامها بشكل عام وشامل، استخدام مستقل عن الجغرافية و التاريخ. إن أسس النظرية يمكن أن تكون متعددة ولكن مع ذلك يمكنها أن تؤسس نظرية موحدة. هذه التعدد وطبيعة متغيراته من الصعب تحديده. حيث نفس الوظائف والحاجات يمكن أن تؤدي إلى إجابات

---

[9]- Foch، " Des Principes de la guerre"، باريس ، الصفحة 94.

مختلفة بشكل كبير وذلك وفق المجتمعات. إذا يمكن القول هنا ، إن بناء نظرية موحدة هو عمل في غاية الصعوبة.

مع ذلك، هذه الحالة و الصعوبة في بناء النظرية لا تؤدي بشكل أوتوماتيكي للأبحاث المتعددة والمتغيرة وفق المجتمعات التي تنشأ فيها.ومن غير أن ندخل هنا في التناقضات اللاهوتية حول طبيعة البشر، إنه من الضروري أن تنظيم المجتمعات البشرية يصل إلى درجات معينة من التعقيد المطابق لاهتمامات البشر. فبناء سياسة خارجية لدولة كبرى ولها قوة عظمى لا يشبه بناء نفس السياسة لدولة صغيرة هامشية.

عرف أحد علماء السياسة المعاصرين النظرية بأنها :" على الأقل مخطط، برنامج لتسجيل، تصنيف وترتيب المعطيات و المعارف.أيضا النظرية ، على الأقل، تستطيع الحصول على قوة تنظيمية وقيمة نقدية" [10]. بالإضافة لذلك، يمكننا تنظيم وظائف النظرية حول ثلاثة محاور وفق وظائف اللغة [11] : أولا ، **وظيفة التعبير**. فالوصول إلى الكتابة ليس تغيير بسيط، بل يجبر الكاتب ببذل جهد كبير وصارم.وهنا لا بد من الإشارة إلى أن العسكريين يكتبون بشكل أكثر بساطة وعدم تعقيد ، من رجال الدولة أو الدبلوماسيين ، وهذا يعني أنهم بحاجة وبشكل قوي إلى نظرية. فوظيفة التعبير، إنها النظرية الإستراتيجية في ذاتها أو هي نفسها ، وهذا يعود للشخص الذي يكتبها أو يبنيها. ثانيا ، **وظيفة الاتصال**. ومن خلال هذه الوظيفة "المعلم"ينقل معرفته إما إلى تلاميذ مختارين، كما كان في الزمن القديم، أو على قراء لا يعرفهم، كما حصل مع بداية العصور الحديثة. وتحول هذه الوظيفة من الحالة الشفهية على الكتابية حتى يتم ضمان وصول الرسالة ومعرفة أصحابها أو منظريها بشكل أفضل. ثالثا ، **وظيفة التمثيل**.هذه الوظيفة

---

[10]- Jean-Louis SEURIN ،" مخطط من أجل تحليل مقارن للحكومات"،بالفرنسية، باريس، دار النشر الجامعية لفرنسا،1989.

[11]- Karl Popper في Konard Lorenz et Karl Popper ،" المستقبل مفتوح"، باريس، دار نشر Flammarion،1995،الصفحة 117.

تتخيل رموزا أو صورا إستراتيجية لم يتم وجدودها بعد. هذا البعد مرتبط بتحولات اجتماعية/سياسية تتعلق بتغيرات فن الحرب.وظيفة التمثيل أخذت أهمية كبيرة بعد النمو السريع في التقنية ،ففي العالم الأكثر تعقيدا ، الإستراتيجية تحتاج أكثر من أي وقت على مساندة نظرية تمثلها أو تقدمها.

إن هذه الرؤية للنظرية وأهميتها تجعلنا نطرح السؤال التالي: ما هي غاية النظرية؟ وهل هناك مقاربات مختلفة لهذه الغاية؟

المقاربة " الواقعية" تقودنا للحديث عن الاختلاف و التنوع في البشر ،ومدى قدرة النظرية على أن تُعَمَّم حيث تجردها سيصبح أكثر ضعفا ،وربما تتحول إلى تاريخ. أما المقاربة"المثالية" هي أكثر طموحا ،ولكنها أكثر صعوبة أيضا.فهي تتطلب دقة كبيرة في توظيف المفاهيم، هذه المفاهيم التي سيتم إدراكها كأفكار عامة ولكن ليست مطلقة.هذه المقاربة أيضا ،ستضع تحت الضوء ،وبالإضافة للتنوع والانقسام الذي نعرفه بعد التجربة التاريخية ،جوهرا معينا سيخدم كنقاط علام من أجل بناء النظرية.الإستراتيجي الشهير Clausewitz اعترف بوجود شكلين للحرب ،لأن المجابهة الواضحة للنظرية مع الخبرة الشخصية قادته للوصل إلى أن **مفهوم الحرب المطلقة** لا يأخذ بالحسبان شمولية **الحرب الحقيقية** ويضيف:" النظرية عليها أن تقبل كل هذا ،ولكن واجبها هو بإعطاء المكان الأول للشكل المطلق للحرب ،كنقطة مرجعية ،لأن من يريد أن يتعلم الأشياء النظرية فإنه سيتعلم على ألا يفقد نهائيا الرؤية" [12].

أما تلميذه Rosinski فقد نقل تعليماته إلى الإستراتيجية البحرية :" نظرية مثالية ستشير بشكل قوي إلى أن السيطرة على البحر هي المفهوم الوحيد الذي من خلاله نظرية مطلقة ،كاملة و مرضية للحرب البحرية

[12]- Carl CLAUSEWITZ ،" الحرب"، مرجع سابق، الصفحة 673.

يمكن أن تتطور، حتى ولو أن هذا الهدف لا يصل لحد التطبيق" [13]. إذا المشكلة الحاسمة هي في المصالحة بين المتطلب النظري مع براغماتية الإستراتيجية، أو في بناء نظرية لا تكون منقطعة عن الحقيقة التي لها قيمة عملية كبيرة. فالنظرية الإستراتيجية يجب أن تترافق بجرعة تجريبية. أو أخيرا، كما يقول "ريموند آرون" :" التفكير بكل وضوح، مفهوم الحرب و حقائق الحرب" [14].

إذا كان على النظرية أن ترتبط بالواقع والتجربة، فما هي المستويات المتعددة لهذه النظرية؟

إن النظرية تفترض جهدا من التفكير حول المفاهيم وحول المناهج أو الطرائق والتي يصعب تحقيقها في الكثير من الأحيان. إذا من الضروري وداخل التمييز الجوهري بين المذهب والنظرية أن نجري عملية من التصنيف أكثر دقة. **بمعنى أننا نميز بين النظرية الإستراتيجية و التحليل الإستراتيجي**، وذلك وفق درجة الدقة والصفاء الفكري.فالمنظر الإستراتيجي يسعى لتقديم عمل إبداعي وفق تفكير منهجي منظم، بينما المعلق الإستراتيجي له حدود تقف عند دراسة حالة معينة، معتمدا على نظريات أو منظرين إستراتيجيين.

كذلك، وضمن هذا التحليل يمكن أن نقول بأن Jomini, Clausewitz, Mahan, Corbett, Castex, Fuller, Liddell Hart, Douhet, Beaufre, Poirier, Schelling...هم منظرون إستراتيجيون، بينما Caemmerer, Mordacq اللذان يعلقان على كتابات إستراتيجية في القرن التاسع عشر، و Puleston, Lepotier اللذان هما امتداد للإستراتيجي Mahan وآخرون كثيرون هم محللون إستراتيجيون.

في الواقع، لا يمكن الفصل النهائي بين النظرية والتحليل.كما هو

---

[13]- Herbert ROSINSKI، "Commentaire de Mahan"، الصفحة 55.

[14]- Raymond ARON، "Penser la guerre"، الجزء الأول،الصفحة 23.

الحال في علم اللاهوت والفلسفة، حيث تعليقات وتحليلات المؤسسين ترقى إلى تجديد كبير قد يصل إلى ثورة داخل هذه العلوم. أما المعيار الأساسي هنا كما في أماكن أخرى، هو الموهبة التي توضع في خدمة مشروع ما.أيضا يمكننا أنى منظرين إستراتيجيين لا يصلون على حد بناء نظرية متكاملة وفق ما يطمحون إليه، ونرى منظرين يقدمون قيما فكرية عظيمة لكنها تنهار مع أول تجربة عملية لها.

2ـ المذهب Doctrine .

يقول Lucien Poirier :" المذهب يسبق اختيارا محسوبا داخل مجموع النظريات الموجودة. يَستخرج منها مفاهيم يفضلها في عملية التطبيق أو الفعل". (من كتابه " الورشة الإستراتيجية الصفحة 129). إن المذهب له طابع محلي وليس شمولي، ويتم تبنيه ضمن إطار وطني، كما أن له نهاية أو غاية عملية كما يقول Jacques Laurent :" المبادئ القائدة، عندما يتم تشكيلها، تخدم كدليل أو مرشد في بناء القرارات العملية التي سنتخذها".(من كتابه " أداة من أجل الفكر العسكري السوفييتي"، الصفحة 47).

وقد ورد في الموسوعة العسكرية السوفييتية تعريفا للمذهب:" بأنه نظام من وجهات النظر التي تتبناها الدولة خلال فترة زمنية معينة، منطلقا من الأمور الجوهرية، الأهداف وطبيعة حرب ما قادمة، أيضا تحضير البلاد و القوات العسكرية لهذه الحرب ووضع الوسائل الممكنة". أما الولايات المتحدة فقد عرّفت المذهب :" هو الدليل من اجل قيادة الحروب والعمليات الأخرى غير الحروب".

في الواقع، الحوار المذهبي الإستراتيجي يجب أن يصل إلى نتيجة في تبني مذهب رسمي يتم فرض تطبيقه، وقد تم شرحه في تعليمات أو منشورات تؤسس قواعد أو كتابا أبيضا.القوات المسلحة الأمريكية تنشر بشكل دوري

نصوصا مذهبية، وقد تم نشرها وتغييرها خلال سنوات متعددة (1954، 1963،1982،1986،1993).

في الواقع، تربط المذهب علاقة قوية بالنظرية : فالمذهب يحتوي عادة على النظرية بشكل واضح أو مبطن، مباشر أو غير مباشر. ولكن هذه العلاقة بين طرفي علم الإستراتيجية لم تتطور بشكل مماثل في العالم المعاصر. وهنا نستطيع القول أن النظرية هي بشكل جوهري عمل تراكمي، بمعنى أنها تستند في أجزائها على كتابات ماضية، وعلى مفاهيم ومناهج من الماضي تم تعريفها مسبقا، والهدف هو إغناء هذه النظرية ومحاولة وصولها إلى الكمال. على العكس من ذلك، المذاهب تأتي بشكل متتال أو متعاقب، أي بشكل متقطع، من غير أن نراها ترتبط بالمذاهب التي سبقتها أو التي تظهر وتنشر في مكان آخر، وحتى في الشكل العملي للعلاقة بين المذاهب، القطيعة لا تكون نهائية، إلا أننا نرى العلاقة بينها بطيئة، ضعيفة وكل مذهب إذا أراد الارتباط أو الأخذ من مذهب آخر فيكون من خلال محاكاته أو تقليده في النتيجة، إن طرق ومناهج التعبير هي مختلفة بين الجانبين، النظرية و المذهب. وتبقى النظرية الإستراتيجية هي قبل كل شيء فكر منفتح، بينما المذاهب الإستراتيجية فيها الكثير من التستر على الأسرار و الأفكار، وخاصة فيما يتعلق بالشؤون الدفاعية.

بالاستناد إلى تحليل العلاقة بين النظرية و المذهب، نستطيع تحديد بعض الأمور المتعلقة بطريقة عمل المذهب.فعلى الخلاف من النظرية أو من النموذج الأمثل لها، المذهب لم يكن في أي يوم من الأيام حياديا، فهو يدار ويحكم بواسطة مبدأ الفعالية و الثبات. وهو من الأجل الاستخدام الداخلي والخارجي في نفس الوقت.

في الداخل، يهدف المذهب لخلق مجتمع أو تجمع من الفكر بهدف القيام بفعل ما.

(انظر: Foch، مرجع سابق، الصفحة 101).فخلال العديد من القرون، كان عمل المذهب يتركز على تعريف طريقة وعمل الأسلحة، وهذا العمل بشكل عام لم يختلف من بلد لآخر إلا بشكل بسيط جدا.إذا كانت وظيفته، بالتحديد، وظيفة عملية، ونذكر هنا أن Clausewitz أبعد من حقل ومجال التفكير الإستراتيجي كل ما يتعلق بتحضير الحرب. فمجال المذهب كان محددا بصرامة ودقة ولم تتطور هذه الوظيفة إلا بشكل بطيء.

ومع التقدم التقني السريع، كان على المذهب وضع تعريف جديد لتوظيف الأسلحة، بمعنى ما هي الأسلحة التي يجب أن نستخدمها في البداية.وفي نفس الوقت، كان عليه الموافقة بتحديد مكان لأشياء جديدة أكثر كبرا من الماضي أو قبل عام 1789. ففي العصر الحديث كان على المقررين أن يواجهوا ضرورة الاختيار بين أمور متعددة. هذه الاختيارات تنتج بشكل أقل عن تطور موضوعي لإمكانية العتاد أو المواد ، وشكل أكبر عن مفاهيم يجب اختيارها. فالتأخر التقني ليس فقط نتيجة للافتقار إلى الوسائل، بل ينتج أيضا عن التأخر و الجمود الفكري.

وعلى العكس، الذي أخذوا بمقاربة "فردية" يؤيدون أن طاقة المعركة و استخدام الذكاء في حالة معينة خاصة، بالنسبة للقادة، هي عوامل نجاح ذات قوة وتأثير أكبر من المذاهب التي توضع بشكل مسبق. وعمليا هذا الرأي يتفق بشكل كبير مع Clausewitz الذي يعطي دورا مهما للصدفة و الحظ أثناء الحرب.مع ذلك، هذا الأخير كان قد تحدث في السابق عن أن المذهب المشترك هو أفضل وسيلة لضمان فهم أفضل للأوامر والأنظمة الموضوعة. ولهذا السبب، في ظل غياب مذهب معين للقيادة في الحروب و المعارك، فإن موت أحد القادة العسكريين الكبار أو القادة المباشرين قد يؤثر بشكل سلبي كبير على المعركة أو الحرب.

بالإضافة لما سبق، وفيما يتعلق بانتشار المذهب بشكل واسع أو ضيق، يمكن القول أن المذهب هنا على عكس النظرية أيضا. فالنظرية في

الغالب تنتشر بين "نخبة" فكرية، بينما المذهب ينتشر بشكل واسع، فليس القادة وحدهم من يفهمه ويعرفه، بل على المنفذين له أيضا أن يمتلكوا معرفة دقيقة للمذهب.

ثانيا ـ المناهج و الطرائق الإستراتيجية.

في طرحنا أو سؤالنا عن المناهج المستخدمة في العلوم الإستراتيجية، نكون قد وصلنا إلى موضوع بالغ الأهمية يتعلق بهذه العلوم. فعلم الإستراتيجية كما الفروع العلمية الأخرى لديه أصول معرفية أو إبستمولوجية، ولديه أيضا منهجه أو طريقته. ومن الإشكاليات المطروحة في هذا الشأن أمام الكتاب الإستراتيجيين أنهم لا يمتلكون تكوينا أو معرفة فلسفية أو أكاديمية تسمح لهم بإجراءات مقاربات معينة في الأفكار والمواضيع التي يطرحونها.

Clausewitz أحد كبار الكتاب الإستراتيجيين، كان قد درس جيدا الفيلسوف الألماني الشهير فيخته لأنه وعى مبكرا على أهمية التكوين الفلسفي للكاتب الإستراتيجي.مع ذلك يرى بعض مؤرخي الإستراتيجية أنه لم يصل إلى المرحلة التي تقدم فكرا نقديا، بل كان لديه كتابات عامة. ويقول "ماكس فيبر" في الحديث عن الإستراتيجيين:" معظمهم فهم هذا الحقل العلمي أو أدركه كمعرفة موضوعية مشيدة على قواعد شاملة وعالمية، ولكن علم الإستراتيجية، في الغالب، ليس إلا ترجمة لتجربة تاريخية محدودة ومحلية" [15].

أيضا الإستراتيجي الشهير Mahan، استبعد في دراساته أية نظرية شاملة للقوة البحرية انطلاقا من دراسة تاريخ بحري واحد لأوربا الحديثة. ونذكر هنا أنه في القرن التسع عشر، دراسة التاريخ كانت المصدر المفضل، إذا لم نقل الوحيد، من أجل دراسة الحرب. وقد ذكر نابليون هذا الموضوع

---

[15]ـ ماكس فيبر، " دراسة حول نظرية العلم، صادر في باريس،بالفرنسية،دار نشر Plon، سلسلة أبحاث في العلوم الإنسانية،عام 1965.

أكثر من مرة عندما قال :" إذا أردت القيام بحرب هجومية مثل الإسكندر، هانيبال، القيصر، أو غيرهم، اقرأ، ثم أعد قراءة التاريخ فيما يتعلق بالثلاث والثمانين حملة قاموا بها، كن مثلهم أو قلدهم، وهذه هي الوسيلة الوحيدة لتصبح قائدا كبيرا". (من كتاب ملاحظات نابليون الأول، الجزء السادس، الصفحة 179).

إن هذا المصدر التاريخي تحول بشكل طبيعي إلى منهج، هو المنهج التاريخي والذي وصل إلى ذروته بين عامي 1880 . 1914، وتم تطبيقه في كل مكان، لاسيما في الإستراتيجيات البرية والبحرية، علما أن هذا المنهج تم الخروج عليه في العديد من الحالات في فرنسا وألمانيا، وأيضا على يد كبار مؤسسي الإستراتيجيات البحرية وأهمهم الأمريكي Alfred T.Mahan و البريطاني PhilipColomb. من جهة أخرى، كان هذا المنهج في منافسة كبيرة مع منهج آخر لا يعتمد على التاريخ بل على "الحاضر" بمعنى أنه اعتمد على مقاربة أخرى وهي التقدم الكبير والجذري في المجال التقني و على الثورة الصناعية. وكانت بداية التمييز بين المنهجين مع البريطاني Reginald Custance الذي ميز بين المنهج التاريخي و المنهج المادي في بداية القرن العشرين في كتابه " Naval Policy" الصادر عام 1907.

أما الكتاب العسكريون في نهاية القرن التاسع عشر، فقد فضلوا مواجهة المنهج التاريخي بمنهج آخر هو المنهج العقلاني ،والذي وجد أصوله في المقاربة الهندسية عند التكتيكيين في العصر الحديث. من جهتها، الجغرافية العسكرية بنت منهجها الخاص في البحث الإستراتيجي. أما بالنسبة للمنهج العقلاني والمنهج الوضعي فهما متجاوران بشكل كبير إذا لم نقل أنهما متماثلين في الكثير من الحالات، والتفريق أو التمييز بينهما يعود لاعتبارات تاريخية. أما فيما يتعلق بالمنهج الفلسفي فإنه يتميز من خلال موضوع الدراسة الخاص به أكثر مما يتميز بالطريقة، وهو ليس إلا تطبيق نوعي للمنهج العقلاني.

1ـ المنهج التاريخي.

وهو الأكثر استخداما ،أو على الأقل كان كذلك حتى الثورة النووية.هذا المنهج يعتمد المقارنة و التجربة أيضا ،ولكنه لا يعتبرهما عملين إجباريين في البحث. الإستراتيجي والجنرال البروسي Scharnhorst ،في نهاية القرن الثامن عشر، فضّل العمل على أمثلة قليلة، ولكن على أن تتم دراستها بعمق. أما الجنرال Hubert Bonnal ،في نهاية القرن التاسع عشر، وضع منهجا يتألف أو يقوم على مثال واحد بهدف الوصول لنتائج إستراتيجية أكثر منها تكتيكية. بشكل عام، المنهج التاريخي كان يهدف من خلال مقارنة التجارب التاريخية المتعددة ،الوصول إلى وضع قوانين أو قواعد محددة.لقد عرف هذا المنهج العديد من الصعوبات أو عدم الوصول إلى القناعة التامة به كمنهج متكامل. من هذه الصعوبات هي الطابع غير الكامل أو غير الأكيد للمصادر خاصة القديمة منها.

2ـ المنهج الواقعي.

تحت اسم هذا المنهج تختفي الطريقة المادية القديمة التي تتأسس على وسائل موجودة في بيئة محددة أكثر مما تتأسس على معاينة موروثة من الماضي والتي ليس لديها الكثير لتقديمه لنا. فالكثير من الدروس التي استفيد منها في حروب ماضية لا يمكن الاستفادة منها الآن كما لا يمكن استخدامها.ونشير هنا أننا عندما نقول منهج "مادي" فإن هذه التسمية لا تقتصر على جانب مادي مطلق، لأن العوامل الإنسانية يبقى لها دور بالغ الأهمية ،وأيضا استطاعة الوسائل المادية يجب أن تترافق و تتوافق مع الطريقة التي نريد استخدام هذه الوسائل فيها.

في الواقع، المنهج الواقعي سوف يعمل على وضع الإستراتيجيات وفق عمل وسير الوسائل الممكنة.وهو ينقسم إلى فرعين: المنهج الموضوعي والذي سيرتبط بقدرة الوسائل المتاحة، و المنهج الذاتي/الشخصي المرتبط بالمذاهب

المستخدمة والتي يمكن ألا تتطابق مع القدرات القصوى للوسائل المتاحة، أو ألا تتأقلم نهائيا معها.

3ـ المنهج العقلاني/العلمي.

المنهج العقلاني أو الذي يمكن أن نسميه بالعلمي، " يُقترَح من خلال الانطلاق من أولوية وسائل الإستراتيجية، حتى الوصول ومن خلال البراهين، إلى القواعد التي ستتبع ومن أجل تحديد الأجزاء الأكثر أهمية و التي يمكن استغلالها بشكل كبير" [16]. إن الخطوات التي يتبعها هذا المنهج ليست مؤسسة على الخبرة أو التجربة ، كما في المنهج التاريخي، وليس مؤسسة على الوسائل، كما في المنهج الواقعي، بل مؤسسة على المنطق الخالص.

استُخدم هذا المنهج منذ زمن بعيد حيث ظهر في البداية بشكل أو هيئة هندسية، لاسيما عند مؤسسي الفكر التكتيكي الحديث، إن كان في الإستراتيجيات البحرية أو البرية. المارشال Puységur استند بشكل واضح على علم الهندسة ويقول في كتابه "فن الحرب": " قاعدة وأساس كل فن الحرب هي في القدرة على تشكيل أنظمة جيدة للمعارك وجعلها تتحرك و تتفاعل ضمن قواعد كاملة أو الأكثر كمالا في الحركة؛وهذا ما يمكن استخراج مبادئه من علم الهندسة".

ويبدو أن معظم ، إذا لم نقل جميع، الكتاب الإستراتيجيين استندوا على هذه المبادئ من اجل تقديم تعريف القواعد و الأنظمة بشكل ناجز أو كامل، و يمكن تطبيقها في جميع الظروف من غير العودة لوضع الخصم أو اعتباراته الخاصة، أو حتى إعطاء اعتبارات خاصة للميدان.إن المنهج العقلاني المستند إلى العلوم الهندسية تحول إلى مخططات إستراتيجية عند الكثيرين أثناء المعارك وحروب الاستقلال.أما اليوم فقد اختفى هذا الإعجاب الكبير

---

[16]ـ Antoine Grouard ، " الإستراتيجية"، مرجع سابق،الصفحة 29.

بهذا المنهج أو الطريقة، مع العلم أن المنهج العلمي عرف تطورا هاما على مستوى العمليات و التكتيك.

أخيرا، ومع بداية القرن العشرين، بدأت الكثير من الجيوش البحث عن تطبيقات أكثر خفة وسرعة.وأثناء الحرب العالمي الثاني، وضع الأمريكيون و البريطانيون مجموعات علمية مكلفة بتحسين توظيف عمل الرادارات والوسائل المضادة للغواصات. وقد أصبح البحث العلمي في العمليات شيئا دارجا ومفتوحا أمام التحليلات المنهجية.

4ـ المنهج الجغرافي.

استطاعت العلوم الجغرافية العسكرية أن تؤسس منهجا تقدم و تدرج بشكل مستمر حتى أصبح"حقلا علميا" كاملا ومطلوبا بشكل كبير وهو **"الجيوإستراتيجية"**. هذا المفهوم قديم جدا وأكثر مما نعتقد، فقد ظهر مع "الجيوتكتيك"، والذي لم يعرف نفس الحظ، تحت ريشة الجنرال الإيطالي Giacomo Durando في عام 1846. لكن هذا المنهج لم يتأسس بشكل حقيقي إلا في نهاية القرن التاسع عشر.وبينما المنهج التاريخي والمنهج الواقعي يهتمان كليهما "بالأداة"، أي بالقوى المسلحة؛ إلا أن المنهج الجغرافي يهتم "بالوسط" أو البيئة التي ستعمل فيها "الأداة".الجغرافية العسكرية تهتم بصفات الأرض و الميدان، أما الجيوإستراتيجية فتهتم وتحلل المسافات ،وهذا عامل رئيسي في الحرب الحديثة.

5ـ المنهج الثقافي.

يعتبر هذا المنهج من المناهج التي وضعت حديثا، فمفهوم الثقافة الإستراتيجية لم يوضع ويفرض إلى مع نهاية السبعينات من القرن العشرين. فقد استخدمه بشكل واضح أكثر من غيره البروفسور الأمريكي في العلاقات الدولية Jack Snyder، وفي كتاب بعنوان The Soviet Strategic Culture والصادر في عام 1977. المنهج الثقافي يعتمد على مجموعة من العلوم وأهمها السيكولوجية، الإتنولوجية و السيسيولوجية.

يبحث هذا المنهج عن إقامة ثقافات إستراتيجية يمكن تعريفها كالتالي:" وهي مجموعة من المواقف و المعتقدات المفضلة داخل معهد أو مؤسسة عسكرية، فيما يتعلق بالهدف السياسي للحرب والطريقة الإستراتيجية و العملاتية الأكثر تأثيرا و التي يمكن الوصول إليها" [17].

يقصد بهذا التعريف وكما هو متعارف عليه بين الكتاب الإستراتيجيين الفرنسيين، تحديد في أية أجواء ومناخات تجذرت المحاور الكبرى للإستراتيجية داخل الثقافة الوطنية بشكل أساسي، لأن هذه الثقافات الإستراتيجية الوطنية يمكن أن تترافق أو تواكب ثقافة إستراتيجية تعود لفرد أو جماعة، حيث كل جيش يستطيع أن يقول أن له ثقافته الإستراتيجية التي يمتلكها. ففي الولايات المتحدة الجيش يعطي مكانة خاصة للإستراتيجي Jomini، والقوى البحرية تعطي هذه المكانة للإستراتيجي البحري Mahan، أما القوى الجوية مع Douhet وهو منظر الحرب الجوية الإيطالية [18]. إن مفهوم الثقافة الإستراتيجية استلهم الكثير من الثقافة السياسية التي جاء بها الكتاب السياسيون الأمريكيون في سنوات الستينات مثل Gabriel Almond, Sidney Verba في كتابهما (The Civic Culture، 1963)، و Lucien Pye في (Political culture and Political Development، 1965).

6ـ المنهج التركيبي.

هذا المنهج يتكون من مجموع المناهج السابقة.ولكن لابد من القول هنا أنه من الصعب العثور على كتابات قديمة أو كلاسيكية استخدمت هذه المناهج مع بعضها. وتشير بعض الدراسات التي أرخت علم الإستراتيجية على أن الأميرال Castex في كتابه "نظريات إستراتيجية" اقترب كثيرا من

---

[17]ـ هذا التعريف جاء في بحث تحت عنوان "الثقافة الإستراتيجية الفرنسية"،الكاتب Bruno Colson،من مجلة "الإستراتيجي" العدد 53،الفصل الأول 1992،الصفحة 29.

[18]ـ انظر : Russel WEIGLEY، " The American Way of War"، صادر في نيويورك ولندن، عن دار نشر Macmillan-Collier، 1973.

استخدام المنهج التركيبي. بعد الأميرال Castex يأتي Bernard Brodie والذي استخدم المناهج التاريخية و الواقعية معا، وخاصة في أعماله الأولى حول الإستراتيجية البحرية، ولكنه لم يعط مساحة أو مكانة واضحة للمنهج الجغرافي ،ولم يعرف أيضا قيمة المنهج الثقافي إلا بشكل متأخر.

7ـ المنهج الفلسفي.

وهو الجزء الأرقى والأصعب في علم الإستراتيجية.ويعتبر الصينيون أول من استخدم هذا المنهج أو الطريقة. وبينما الفكر الاستراتيجي الغربي امتلك قاعدة تاريخية، الفكر الإستراتيجي عند الصيني Sun Zi ومن أتى بعده كانت يرتكز على أسس فلسفية. حيث أراد الإستراتيجيون الصينيون تطبيق المنهج الفلسفي والحكمة في مجال الحرب، كما في المجالات الأخرى من الحياة الاجتماعية [19].

المنهج الفلسفي وكما يقول Clausewitz يهتم بجوهر الحرب، أو بجزء منها كما يقول Corbett و Rosinski في عملهما عن الحرب البحرية، أما اليوم فيهتم هذا المنهج بالعلوم الإستراتيجية كعلوم معرفية، ويساند هذا المفهوم الإستراتيجي Poirier. أما الصفة المشتركة بين هؤلاء هي ما نستطيع تسميته بالمتطلب النظري، بمعنى الإرادة في تجاوز الأشياء كما هي، أو تجاوز الطبيعة المادي للأشياء من أجل فهم طبيعتها الفلسفية و المعرفية، أما الهدف النهائي فهو الوصول إلى نظرية موحدة.بالنسبة للعالم الغربي، يعتبر Clausewitz النموذج الذي لا يمكن تجاوزه، إن كان

---

[19] ـ انظر ، Everett L. WHEEler، " The Origins of Military Theory in Ancient Greece and China"، يمكن إيجاد هذا المرجع على العديد من مواقع الإنترنيت.

فيما يتعلق بعمق أفكاره أو من خلال قلقه الدائم من أجل ربط التطورات العملياتية بالنظرية [20].

بعد محاولة القراءة السريعة لمناهج البحث الإستراتيجي، لابد من طرح سؤال في غاية الأهمية يتعلق بجميع هذه المناهج : **هل يمكننا تحديد منهج واحد من بينها يكون أكثر دقة من غيره؟**

المنهج التاريخي هو منهج متغير بشكل كبير، بمعنى أنه من الصعب أن يكون منهجا شاملا وقادرا بشكل دائم على الوصول إلى الحقيقة. **والمنهج الواقعي** يقدم الموضوع التقني على غيره.بمعنى أن يبحث عن الوسائل الممكنة التي مصدرها التقدم التقني.أما **المنهج الجغرافي**، فيعطي الأولية للوسط أو البيئة.وكما رأينا ذلك مع منظري الجيواستراتيجية في القرن العشرين. وبالنسبة **للمنهج العقلاني ـ العلمي** فإنه يهمل العوامل المادية ويصل إلى اختزال الحرب إلى قواعد رياضية أو هندسية.بمعنى أن هذا المنهج يبحث عن صيغة دائمة يمكن تطبيقها في جميع الظروف.

وفي **المنهج الثقافي** نجد أنه مرتبط بالبيئة الاجتماعية.وهنا يقترب كثيرا من المنهج الواقعي ليشير إلينا بمتغيرات الإستراتيجية حسب المكان والزمان.أما **المنهج التركيبي** الناتج عن التوفيق بين العديد من المناهج، وهو بالتعريف منهج متعدد ويرتكز على إستراتيجية متعددة الوسائل. وأخيرا **المنهج الفلسفي** الذي يرتكز بشكل جوهري على النظرية.فهو بهذه الحالة لا يستند على عامل واحد بشكل خاص ،بل يحاول فهم ظاهرة الصراع بأقصى حد ممكن من الدقة والصرامة العلمية ،ثم يضعها في بيئتها الخاصة للوصول بالوسائل المستخدمة إلى الغايات النهائية المنشودة.

---

[20]ـ يمكن العودة هنا إلى James B. SMITH، "Some Thoughts on Clausewitz and Airplanes"، صادر عن Air University Review، آب 1986.

ثالثا ـ مبادئ الإستراتيجية.

في قراءة و تحليل مبادئ الإستراتيجية يمكننا أن نطرح في البداية إشكالية هامة تتعلق بمدى الموضوعية في اتخاذ القرار الإستراتيجي، أو بمعنى آخر ما هي المبادئ التي نسميها أو نتخذها كمرجعية في صناعة القرار الإستراتيجي؟ وكيف نقيّم صلاحية قرار إستراتيجي معين؟

في الإجابة على هذه السؤال نرى أن مبادئ الإستراتيجية تتدخل بسرعة لمساعدتنا في صياغة ووضع الإجابة، أو بشكل آخر للقول:هل القرار الإستراتيجي الذي نتخذه يحترم معايير و قواعد أساسية تتعلق بالعلوم الإستراتيجية ،قد تم وضعها من خلال التجربة و الحدس؟ في الواقع، إن مبادئ الإستراتيجية لا يمكن تجاهلها لا على المستوى الاستراتيجي ولا على المستوى التكتيكي في الحرب أو في غيرها. فالمبادئ الإستراتيجية هي قواعد عامة تهدف للوقاية من مفاجآت العدو والتأكد من التفوق عليه في أية خطوة نختارها في التعامل معه. إن التاريخ يبين أن وضع مبادئ للإستراتيجية ثم التقيد فيها في عملية صناعة القرار هي من أكبر الصعوبات التي واجهت عمل الإستراتيجيين في زمن الحرب و السلم. وعمليا هذا ما دفع العديد منهم للقول بأن تطبيق مبادئ محددة للإستراتيجية يختلف كثيرا عن صياغتها أو وضعها، حيث أنه من المستحيل التقيد الصارم بهذه المبادئ.

إذا ، هل يمكن وضع قواعد دائمة يمكنها قيادتنا لاسيما أثناء الحروب؟ إن البحث عن مبادئ إستراتيجية بدأ بشكل عملي منذ بداية تبلور الفكر العسكري الحديث. في بداية القرن السادس عشر كان ميكيافلي قد أعلن ذلك مسبقا :" لا يوجد علم لديه مبادئه العامة التي هي قاعدة لمختلف العمليات أو الممارسات التي نقوم بها".(من كتاب فن الحرب، ميكيافلي، مرجع سابق، الصفحة 188). هذا البحث عن المبادئ طُرح بشكل واضح من قبل المارشال Marmont:" نحن نكتشف مبدأ ثم

نبحث فيما بعد عن أفضل وسيلة للوصول إليه أو تطبيقه.المبادئ تكون معروفة، لكن العبقرية في تطبيقها وهنا يكمن فن الحرب" [21].

إن جميع التأكيدات حول عالمية المبادئ تصطدم بمسألة تتعلق بشكل مباشر بهذه المبادئ وهي تنوعها وتحولاتها الدائمة. فالمبادئ في علم الإستراتيجية تتغير من كاتب إلى آخر، وما هو أساسي عند هذا الكاتب ربما يكون هامشيا عند غيره. وهذا ما دفع العديد من المتخصصين للقول وهم يحاولون إيجاد حل لتحولات وتغيرات المبادئ، بأن المهم ليس إيجاد المبادئ ولكن المهم هو البحث عنها.

ـ كيف يمكن التحقق من المبادئ ؟

إن مسيرة التحقق والتعرف على مبادئ الإستراتيجية أنتجت لنا أدبا إستراتيجيا خاصا وضخما. فمثلا الجنرال و الإستراتيجي الشهير Foch (1851ـ 1929)، يشير في العديد من كتاباته إلى "المبدأ السامي أو الأرقى" وهو **ـ اقتصاد القوى ـ** ،ويضيف عليه مبدأ آخرا يرى فيه أنه مطلقا وهو **ـ حرية الفعل والتصرف ـ**،وهذا المبدأ الأخير يستعيره الكاتب من Xénophon عندما يقول :" فن الحرب هو بشكل جازم ونهائي فن الحفاظ على حريته". (من كتاب Foch " مبادئ من أجل الحرب"، كتبه في عام 1903، الصفحة95).

أما الميجور- جنرال Fuller فقد اقترح لائحة استفاد منها الجيش الأمريكي بشكل كبير في عام 1921. تم تنقيحها و تصحيحها أكثر من مرة، مع ذلك احتفظت ،ورغم تناولها من قبل مذاهب مختلفة، بقوتها ومكانتها. وفي آخر طبعة للمرجع Field Manual 100-5 الصادرة في عام 1993 عن الجيش الأمريكي، تأخذ هذه الطبعة بتسعة مبادئ هي : الهدف، الهجوم، التجمع، اقتصاد القوى، المناورة، وحدة القيادة، الأمن، المفاجأة

---

[21]ـ Maréchal Marmont، " روح المؤسسات العسكرية"، الصفحة 4.

والبساطة.أما تغيرات وتحولات المبادئ لا تنتهي وليس لها حد. لقد تحدث بعض الإستراتيجيين عن مبدأ أو مبدأين كبيرين يلخصان كل فن الحرب. الأميرال Labouerie حدد المبادئ جميعها بمبدأين فقط وهما : الصعق أو الرعب و الشك [22].

رابعا ـ القرار الإستراتيجي.

تُفهم الإستراتيجية في العادة على أنها رؤية شاملة على المدى الطويل، ولكنها تقع تحت رحمة التغيرات المستمرة وغير المتوقعة.أيضا القرارات الإستراتيجية تؤخذ في الكثير من الأحيان في أجواء من الضغط المستمر يكون بدرجة كبيرة أو قليلة. إذا ليس من المدهش القول بأن القرار الإستراتيجي هو واحد من أصعب القرارات التي يمكن أن تحدث، وأيضا من أعقدها على الإطلاق، ومن هنا ربما تأتي الندرة في وجود قادة عظام وكبار. فالقرار الإستراتيجي يقع تحت هيمنة التغيرات و التحولات، إنه يتبع مؤشرا متعددا وليس واحدا، إنه قرار يأتي بعد عدة تقييمات وتقديرات أهمها :

- المجازفة والرهانات.
- الوسائل و الإمكانيات.
- الأخطار.
- الظروف.

1ـ المجازفة و الرهانات.

وتقع على مستويات مختلفة، إنها ضرورية من أجل التمييز بين الغايات السياسية و الأهداف الإستراتيجية. هذا التمييز في العادة تصعب رؤيته أو تحقيقه كما يقع ضحية للخلط في المفاهيم. ويرى Clausewitz أنه كلما كان الرهان حيويا كلما كانت المخاطرة مبررة وتستحق الكثير من التضحيات، وإذا كان الرهان "محدودا" فنعطيه بعض الوسائل التي تتناسب

---

[22]ـ Guy LABOUERIE، " مبادئ الحرب"، بحث في مجلة "الدفاع الوطني" الفرنسية،نيسان 1992.

معه، مع أدنى مستوى من المخاطرة.وعلى المستوي العملياتي، لابد من تقدير وتقييم التماسك لهذا الهدف أو ذاك. إن التاريخ الإنساني والعسكري بشكل خاص يعطينا أمثلة كثيرة على القرارات التي اتخذت أو استندت على أسس وتقييمات سيئة وخاطئة للرهان، إن كان على المستوي السياسي/الإستراتيجي أو على مستوى العمليات العسكرية والحروب.

2ـ الوسائل و الإمكانيات.

يرى الإستراتيجيون أنه من الناحية المبدئية، بأن الوسائل والإمكانيات رغم تحولها وتغيرها إلا أنها سهلة الفهم. مع ذلك، لابد من اختيار الوسائل التي يمكن توظيفها، ثم الاختيار فيما بينها، وبعد ذلك يجب الأخذ بالحسبان عدم الدقة والتأكد الكامل من الرأي الذي تم اتخاذه. اختيار الوسائل يعتمد، في نفس الوقت، على إمكانيات الفاعلين بمعنى (يجب التصرف وفق ما لدينا)، وأيضا على طبيعة المشكلة المطروحة بمعنى (هذا يقود للغاية التي نريد الوصول إليها).

3ـ الأخطار.

يقول نابليون بونابرت في هذا الصدد:" الحرب لا يمكن أن تكون من غير أخطار، فنحن نرى شرورها أكثر مما نرى شرور الحرب نفسها، لذلك لابد من إظهار الثقة دائما" [23]. وجميع فنون الحرب تأخذ في حسبانها دائما الأخطار وتقوم بالتخطيط لها بشكل مسبق، ومن هنا لابد للوسائل أن تتوافق مع الأخطار المتوقعة، أو على الأقل ألا تكون أقل منها بكثير. الاحتياط من الخطر يأتي على جميع المستويات، ثم يوسع هامش الحسابات للصدفة، ولكن بالمقابل يجب أن يكون هناك استعداد دائم لمعالجة النتائج التي يمكن أن يتسبب بها قرار خاطئ على مستوى عال. هذا القـــــــرار يمكن أن يسبب

---

[23]ـــ من رسالة وجهها نابليون إلى الأمير Eugène في تاريخ 30 نيسان عام 1809،وجاءت في كتاب للجنرال Camon بعنوان " الحرب النابليونية" ،الصفحة 326.

تراكمات خطيرة ولكن يمكن تحييدها بشكل تدريجي إذا تم التخطيط للأخطار المتوقعة.

اليوم، حساب الأخطار يختلف عن الماضي، وربما يعود هذا لأن الحرب أو حتى الميادين الأخرى أصبحت تستخدم وسائل متطورة جدا في تطبيق الإستراتيجيات. هذا الوسائل تحاول الوصول إلى ضمانات شبه مطلقة في عدم وقوع أية خسائر لا في الحرب ولا في غيرها، وقد سمي هذا التيار الجديد في التخطيط لعدم وقوع الأخطار " صفر من الموت"، بمعنى ألا يموت أحد. ولكن على أرض الواقع ليس دائما التطور التقني والتكنولوجي هو من يحدد طبيعة تطور الأخطار، فالعدو أو المنافس في هذه الحالة هو من يلعب الدور الحاسم.

4ـ الظروف.

هناك من يردد دائما بأن التاريخ لا يعيد نفسه نهائيا، مع ذلك نرى أننا بحاجة لقراءته بشكل مستمر في الواقع، توجد ظروف تلعب دوراها بشكل مستمر ومنها الجغرافية، التقنية و العامل الإنساني، ولكن لا يوجد حتمية في هذا الشأن، فكل حالة لها ظروفها الخاصة التي يجب أن تأخذ بالاعتبار في أي قرار إستراتيجي.هذه الظروف الخاصة تعود إلى عوامل جغرافية، ظروفٍ سياسيةٍ، دبلوماسية وعسكرية. ويبقى أن نقول بأن قدرة الخصم واستعداده يلعبان دورا حاسما.

ويرى نابليون بونابرت أن القرار و التخطيط الإستراتيجي عليهما التوافق مع الظروف التي يمكن ان تتغير بشكل ستمر:" أن تنفيذ العمليات هو تدريجي ويخضع لتأثيرات وأحداث يمكن أن تقع وتتغير كل يوم" [24] .

خامسا ـ وسائل القرار الإستراتيجي.

إن الأخذ بالحسبان لجميع معايير وتقديرات القرار الإستراتيجي لا يعني أن نبعد جميع الفرضيات المحتملة لصالح واحدة فقط. فالطابع الميز و

---

[24]ـــ من كتاب،"تعليقات نابليون الأول"، الجزء الأول.

الغالب على الإستراتيجية هي أنها لها طابع "احتمالي". فمن بين جميع المتغيرات النظرية التي يمكن تقييمها وتقديرها بشكل موضوعي، إلا أنه يبقى لدينا جانب لا يمكن تقييمه بشكل صحيح إلا من خلال الجانب الشخصي والذي يتعلق مباشرة بتصرفات وسلوك الخصم، المنافس أو العدو.

عن الطريقة الأفضل للتقييم هي بناء شبكة كبيرة وقادرة على الحصول على جميع المعلومات المطلوبة.فرغم الصعوبات التي تعترض "مهنة"التجسس، إلى أن كبار القادة السياسيون والعسكريون يعمدون إلى تدعيم هذه المهنة مهما كانت مكلفة وحتى لو أن القوانين تحكم بأشد العقوبات على من يمارس هذه المهنة.إذا هذه الوسيلة كانت وما تزال هي من الوسائل المتبعة في عملية اتخاذ القرار الإستراتيجي.[25]

ولكن مهما كانت النوعية أو الأهمية التي تتميز بها المعلومة التي نحصل عليها، فإنه من النادر أن تسمح لنا بإبعاد كلي لعدم التأكد أو عدم اليقين، أو الحصول على معرفة كلية وأكيدة للموضوع الذي نريده.بمعنى آخر، إن التحليل الموضوعي للوضع والحالة سيترك مكانه في لحظة معينة لتقييم آخر وتطورات أخرى تتعلق بالجانب الشخصي وكما ذكرنا سابقا. ضمن هذا المجال، يوجد مدرستين تتحدثان عن المعلومات وهما متخصصتان بها. المدرسة الأولى، وتسمى مدرسة الإمكانيات أو الاحتمالات، وتنطلق من الوضع الراهن أو القائم من أجل تحديد الحلول التي يمكن إتباعها مع العدو.وهي طريقة اتبعها نابليون بونابرت والذي يقول:" يجب ألا نبحث نهائيا عن تخيل أو تصور ماذا سيفعل الخصم".ومن مميزات هذه الطريقة أنها تحبرنا

---

[25]ـ انظر، Ernest R.May، "Knowing One's Ennemies. Intelligence Assessment before the Two World Wars"، Princeton University Press، 1986. انظر أيضا، Ralph D. Sawyer، "The Tao of the Spycraft, Intelligence Theort and Practice in Traditional China"، Boulder-san Francisco-London, Westview، 1998.

على الأخذ في الاعتبار جميع الفرضيات، ومحاول إيجاد جواب على كل حالة أو فرضية متوقع أن يقوم بها الخصم.

المدرسة الثانية، وهي المدرسة المخطَّطَة. تنطلق هذه المدرسة من حالة أو وضع، من إشارات ودلائل يمكن أن تطبعها بطابعها، من مذاهب وتيارات، ومن تجارب سابقة للخصم أو العدو، من سلوك اعتيادي يقوم به الزعيم أو الرئيس، وتبحث عن تحديد الخطط والنيات التي يرمي إليها الخصم، وإلى فهم المناورة التي ربما سيقوم بها [26] .بالتأكيد هناك خطورة بتوقع فهم جميع الخطط والنيات التي يريدها الخصم وهذه من العيوب التي تشوب هذه المدرسة. كما أن هذه الطريقة تعتمد في الكثير من الأحيان على وجود عباقرة في هذا التخصص، وليس طريقة يمكن تطبيقها بشكل دائم.

الإستراتيجية كنظام

1 ـ مدخل

عرف العالم بعد الحربين العالميتين الكثير من التطورات وعلى كافة الأصعدة. فقد تضاعف عدد سكان العالم، وزاد النمو الاقتصادي في الكثير من الأقاليم و القارات. وترافق هذا النمو و التطور مع تقدم على المستوى التقني و التكنولوجي، حتى أن سار على سطح القمر في عام 1969.أيضا هذا بدوره قاد إلى تغيرات سياسية واجتماعية لحقت في جميع الميادين والقطاعات، مما أدى لزعزعة العديد من البنى الاجتماعية والثقافية السائدة والقديمة.

نحن نعرف أن الحرب في القرن التاسع عشر كانت حروبا وطنية، وأصبحت في القرن العشرين حروبا أيديولوجية. لقد كانت حربا صناعية في التاسع عشر وأصبحت شاملة في القرن العشرين، أي وظفت كل مصادر الدولة وثرواتها وطاقتها من أجل خدمة الحرب.والمثال الأكبر على هذا

---

[26] ــ انظر، Bernis،" أجهزة المخابرات"، صدر في باريس عن دار نشر Berger-Levrault، 1934.

التوظيف الشامل هو أن البشرية فقدت في الحرب العالمية الثانية ملايين الضحايا. **والنتيجة هي إعادة بناء بعض أولويات إستراتيجيات الإبادة أو التدمير.ففي حرب شاملة لم يعد الهدف هو الحصول على مكاسب جديدة من الأرض أو توازن الرعب والقوة ،بل التدمير النهائي للخصم.**

في الحربين العالميتين،تطور الأسلحة من الناحية التقنية كان أسرع من المتوقع. فقد أصبحت الحرب تستخدم الآلة بشكل كبير،وهذا ما سمح بتوسيع مساحات المعارك،لا بل مهاجمة الخصم في أرضه نفسها،ثم العمل على اجتياحها. وهنا كانت نتيجة جديدة وقاطعة :**تمدد وتوسع مسرح المعارك،حتى وصلنا إلى مفهوم جديد سميناه بالجيوإستراتيجية، أي إستراتيجية المساحات أو الفضاءات الكبيرة والتي تنظم العمليات التي تجري في وقت متزامن على مسارح منفصلة.** أما الوصول لتصنيع السلاح النووي فقد احدث انقلابا كبيرا في عمليات التسليح،وهذا ما أحدث بدوره تشظٍّ أو تجزئة للإستراتيجية.

لقد ذكرنا في السابق أن الإستراتيجية عرفت في تعريفها القديم "بفن الجنرال". وهذا المفهوم يعود إلى العهد اليوناني القديم،وبقي كذلك حتى نهاية العصر الحديث،ولم يحدث تغيرات كبيرة على المفهوم إلا في عهد حديث ويعود هذا لتأثيرات كبيرة ناتجة عن التطور التقني،الفكري والاجتماعي في القرن العشرين.لقد وضع مؤرخ العلوم "توماس كوهان" بنية للثورات العلمية تسمح بفهم المتغيرات التي حصلت بعد الحرب العالمية الثانية والأسئلة الكثيرة التي دارت حولها.

يقول "توماس كوهان" إن تطور العلم تمركز حول أربعة مراحل: [27]

1 . في البداية وجدت نظرية أو مجموعة من النظريات كان عليها اتفاق

---

[27]ـــ انظر، توماس كوهان،" بنية الثورات العلمية"، بالفرنسية،صادر في باريس عن دار نشر Flammarion، 1972.

كبير، ويمكن أن نسمي هذه النظريات "براديغم"[28]. فالبراديغم يعطي أو يأخذ بالحسبان حالة العلم في لحظة معينة.فمثلا يمكننا التحدث عن براديغم نيوتن في الفيزياء اعتبارا من القرن السابع عشر، وبقي مقبولا حتى الثورة في حقل "النسبية".

2ـ تأتي لحظة معينة يصاب البراديغم فيها بأزمة.فالعمل المستمر للباحثين يعطي ويطرح أسئلة جديدة، وهذا البراديغم لا يستطيع أن يعطي دائما أجوبة كاملة على الأسئلة المطروحة.إذن تظهر حدود لا يكون هناك قدرة على تجاوزها، وبالتالي في هذه الحالة يصبح المناخ مستعدا بشكل أكبر لظهور براديغم جديد يرد بشكل أفضل على الأسئلة الجديدة التي يطرحها تقدم العلم والمعرفة.

3ـ هذا البراديغم الجديد سيخضع للمواجهة مع المعطيات العلمية الموجودة لاسيما النقد الموجه من قبل البراديغمات السائدة.هذه المرحلة الثالثة تتصف بوجود حوار قد يتحول إلى صراع بين وضعية في طريقها للانحطاط و شرعية صاعدة.

4ـ البراديغم الجديد يقترب بشكل أكبر من الحقيقة ومن ظواهر وأسئلة مطروحة، أكثر من البراديغم الذي قبله. فهذا الأخير تم تركه، أما الجديد فتتم مأسسته. هنا تغلق دائرة الثورة العلمية، ولكن هذه الدائرة يمكن أن تعود من جديد.

إن تقسيم "توماس كوهان" له أهميته الكبيرة، فقد استطاع تحقيق المصالحة بين مقاربتين للمعرفة العلمية كانتا في حالة من الصراع حتى انجاز كتابه: النموذج القائم على أساس دائري و البراديغم. ويمكن عمليا تطبيق هذا النموذج على الفكر الإستراتيجي المعاصر.أيضا يمكننا الاستناد على

---

[28]ـ نرجو العودة إلى كتابنا "مدخل إلى الفكر السياسي الغربي"، المتوفر في مكتبة الأكاديمية العربية في كوبنهاجن،وذلك من أجل التوسع بقراءة مفهوم "البراديغم".

الثـورة العلميـة الـتي غـيرت العالم، وذلـك بإدخـال في مجـال الفكـر الإستراتيجي، لاسيما الثورة ما بين سنوات 1945 و1970.

- هل من تغير في مقاربة الإستراتيجية ؟

يعتبر الكثير من الكتاب أن المسائل العسكرية هي وحيدة، بمعنى أنها تختلف بشكل كبير عن الفعاليات المدنية.و الإستراتيجية امتلكت قضايا ومجالات عسكرية منها التاريخ العسكري والجغرافية العسكرية. وفي الواقع، كان للإستراتيجية خصوصية تختلف عن غيرها، فالعسكريون أنفسهم الذين كتبوا في المجال الإستراتيجي امتلكوا بدورهم شبكة من المعلومات والقواعد التعليمية ودور النشر التابعة لهم. هذه الخصوصية وصلت إلى مجموعة من المفاهيم الإستراتيجية و التي تنتمي وفق الكثير من المراقبين إلى نفس الفرضية، أي إلى الفصل الجذري بين مجالي السلام والحرب، السيطرة الكاملة على العسكريين في ميدان العمليات، عدم تدخل العسكريين في الحياة المدنية. وفي فرنسا مثلا، كان العسكريون ممنوعين من التصويت حتى عام 1945.

هذه المقاربة التقليدية للإستراتيجية انتقدت بشكل كبير بعد الحرب العالمية الثانية. حيث عرف مفهوم الإستراتيجية تطورا وصل لحد كبير نقله خارج المناخ والبيئة العسكرية.ولم يعد هناك مقاربة خاصة تعتمد فقط على الجانب العسكري، لاسيما بعد استند مفهومها على مناهج، مدارس، وتحليلات قادمة من علوم وأدوات مستخدمة في المجال المدني، وبشكل أساسي الاقتصاد و العلوم السياسية.ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية، لاسيما مع بداية عام 1949، وضع Bernard Brodie روابط بين الإستراتيجية و الاقتصاد واقترح مقاربة الأمن من خلال مصطلحات ومفردات تتعلق بالثروات النادرة [29].

---

[29]- انظر ، Bernard BRODIE، " Strategy as a Science"، من مرجع World Politics، حزيران عام 1949.

ـ الإستراتيجية و المنهج الجديد.

يعرف معظم المراقبين و المؤرخين للإستراتيجية التقليدية بأنها لم تتبع أو تعتمد على العديد من المناهج والطرائق المتنوعة. فدراسات الإستراتيجية، إلا في بعض الاستثناءات، لم تعتمد على أصول معرفية أو علوم منهجية. فالمفاهيم في الماضي كانت تعتمد على رؤية شخصية، حيث أن الإستراتيجية كعلم كانت في خدمة الإستراتيجية كفن، بمعنى آخر ضاعت قدرات الباحثين والمنظرين أمام ما يقوم به رجل الميدان أو العمليات العسكرية، فالهدف لم يكن سوى تحقيق النصر.

هذه لعقلية تزعزعت بعد الحرب العالمية الثانية.حيث بدأت تظهر تيارات ومذاهب جديدة عرفت انتشارا واسعا وتبناها عدد كبير من الباحثين. وكانت الإستراتيجية في نفس الوقت مدعوة لإدخال الروح النقدية إلى مجالها كما كانت مطالبة بالتواضع وعدم الاستمرار في حصر نفسها بين أيدي قلة قليلة.لقد بدأت الاعتماد على مناهج تحليلية مختلفة من قبل منظريها، ويمكن القول أنها بدأت دخول الحداثة.

فالمنهج التاريخي لم يعد مستخدما بعدما توقف استخدام السلاح النووي بعد الحرب الثانية، والمنهج الواقعي لم يعد كافيا بعدما تبين أن استعمال هذا السلاح لا يمكن فصله عن غايات الإستراتيجية. أما المنهج الجغرافي لم يعد سوى أداة لها منفعة هامشية بعد التقدم التقني والتكنولوجي.المنهج الوحيد المستخدم هو"السيناريوهات". بمعنى آخر وكما يقول "هيرمان كاهان"، **التفكير بغير المفكر فيه**، أي محاولة تخيل عمل أو وظيفة عقلانية لأداة يمكن أن تؤدي لردة فعل غير عقلانية.

إذا السيناريو لا يقترح علينا بأن نأخذ الحقيقة أو الواقع في الحسبان، ولكن أن نتخيل حقيقة أخرى لم توجد بعد.هنا نصل إلا ما يمكن أن نسميه **"الإستراتيجية الافتراضية"**. أيضا أصبحت هناك أداة أخرى تستخدمها الإستراتيجية هي **"الإستراتيجية المتخيلة"**،وقد نتجت عن ـ مبادرة الدفاع

الإستراتيجي - التي وضعها الرئيس الأميركي الأسبق رونالد ريغان، وهي في الوقع نظام لم يوجد أو يفكر فيه من قبل أو لم يوجد بعد.

- هل تغيرت مواضيع الإستراتيجية ؟

اهتمت الإستراتيجية التقليدية بشكل كبير بالعمليات العسكرية (دراسة الحملات، خطط المعارك، التفكير حول الصراع، فن القيادة على الأرض)، تاركة كل ما تبقى للسياسة. لكن المفهوم الكلاسيكي الذي يميز بين مجالي الحرب و السلام ترك المكان لنظام جديد في داخله يتواجد المفهومان بشكل مختلط أو مندمج، ويكملان الإستراتيجية التي من الآن فصاعدا لا يمكنها أن تحد نفسها بمجال واحد فقط يتعلق بالحرب، ولا يمكن أن تنغلق على نفسها في الحقل العسكري. فالإستراتيجية العملياتية تمت إزاحتها بقوة من قبل إستراتيجية شاملة تأخذ في الحسبان جميع التطورات والأبعاد الجديدة [30].

2 - الإستراتيجية المعاصرة.

إن التغيرات التي أصابت الإستراتيجية والتي تحدثنا عنها سابقا، تم تحليلها وتقييمها من قبل جيش من المنظرين والمحللين. فرغم الحضور للكتاب الاستراتيجيين القادمين من المجال العسكري، إلا أن الحدث الجديد كان في الصعود القوي للإستراتيجيين المدنيين مثل Herman Kahn وهو قادم من مجال العلوم، عالما الاجتماع Raymond Aron و Henry Kissinger، المؤرخان Bernard Brodie و Michael Howard، الاقتصادي Thomas schelling والمنظّر السياسي Edward Luttwak.

---

[30] - انظر ، Herman KAHN، " السيناريوهات والتحولات"، بالفرنسية، صادر في باريس عن دار نشر ، Calmann-Lévy و Liberté de l'esprit، 1966. أيضا ، Béatrice HEUSER، " Nuclear Mentalities ؟ Strategies and Belief ، Systems in Britain، France and the FRG، لندن ،دار نشر Macmillan، 1998.

في الولايات المتحدة، كان التفكير الإستراتيجي يعاني من ضعف قبل الحرب العالمية الثانية.مع بداية هذه الحرب بدأ الحراك الإستراتيجي الأمريكي عندما بدأ العديد من المدنيين بالارتباط بهيئة الأركان العسكرية الأمريكية، وقد تطورت هذه الظاهرة بشكل كبير مع نهاية الأربعينات وبعد تأسيس Rand Corporation من قبل القوى الجوية الأمريكية، وقد كان هدفها تحليل التغيرات الجديدة التي أدخل على الجيوش الحديثة. وعمليا يمكن القول أن جميع الأسماء الكبيرة في الفكر الإستراتيجي الأمريكي، باستثناء هنري كيسنجر، مرت عبر Rand Corporation. العمر الذهبي للمحللين الإستراتيجيين الأمريكيين بدأ مع سنوات الستينات ومع وصول " روبرت مكنمارا" إلى منصب وزير الدفاع، والذي كان مؤمنا بدور تحديث التخطيط العسكري من خلال تطبيق طرق في الإدارة الصناعية. قام "مكنمارا" بدعوة المحللين المتخصصين بشؤون الدفاع من أجل شغل المناصب في إدارة وزارة الدفاع الأمريكية.

تدعم وتطور الفكر الإستراتيجي الأمريكي من خلال المبادلات التي حصلت بين الجامعات و المؤسسات البحثية الكبرى العامة مثل : (Institute of Defense Analysis، Centre of Naval Analysis، Congressional Research Service)، أو المؤسسات البحثية الخاصة مثل : (Rand Corporation، Brookings Institute، American Entreprise Institute).أما الطرف الآخر في المبادلة كانت الإدارة الأمريكية، هؤلاء بمجموعهم شكلوا "مجتمعا" إستراتيجيا حقيقيا لا يوجد له مثيل في العالم.

في بريطانيا، استطاعت هذه الدولة أن تقدم العديد من المنظرين الإستراتيجيين الكبار، وقد كان في طليعتهم الفيزيائي P.M.S Blackett والذي كان من أوائل المتحدثين عن دور السلاح النووي في التخطيط

الإستراتيجي [31]، ثم Basil Liddell Hart والذي وضّح العديد من المفاهيم في سنوات الخمسينات، لاسيما من خلال التمييز بين مصطلحات كثيرة تتعلق بالشؤون الدفاعية [32]. في الواقع، وفيما يتعلق بالفكر الإستراتيجي البريطاني، هناك من يعتقد بأن بريطانيا وبسبب عمق علاقاتها وارتباطها بالولايات المتحدة لم تستطع أن تضع إستراتيجيات مستقلة خاصة بها، وقد انعكس هذا بدوره على الفكر الإستراتيجي البريطاني.

على صعيد الدولة الألمانية، نستطيع أن نرى وبوضوح اختفاء هذه الدولة من المسرح الإستراتيجي العالمي بعد الفشل الكبير وفقدان الشرعية للمؤسسات العسكرية الألمانية بعد الحرب العالمية الثانية.أم أهم مشاركاتها في هذا المضمار فكانت عبر بعض الكتاب المدنيين مثل Wolf Schneider، ErikGrawert-May، PanaiotisKondylis و Gunter Maschke.

في فرنسا، لم يكتب النجاح للأبحاث الإستراتيجية المدنية في أن تتحول إلى مؤسسات دائمة، ولا في أن يكون لها تأثير فعلي على أرض الواقع.فالمؤسسات البحثية الفرنسية تأثيرها هامشي بسبب ضعف الإمكانيات والوسائل، ولكن أيضا لأسباب أكثر قوة وهي تكتم

---

[31]ـ من أهم مؤلفاته : " النتائج السياسية و العسكرية للطاقة النووية"،كتاب صادر في عام 1949.

[32]ـ من مؤلفاته، B. H. Liddell Hart, A Greater Than Napoleon: Scipio Africanus (W Blackwood and Sons, Londres, 1926; Biblio and Tannen, New York, 1976)، The decisive wars of history (1929) (première partie Strategy: the indirect approach)، A History of the World War(1914-1918)، Sherman: Soldier, Realist, American (Dodd, Mead and Co, New York, 1929; Frederick A. Praeger, New York, 1960)، The Memoirs of Captain Liddell Hart: Volumes I and II (Cassell, Londres, 1965).

العسكريين فيما يتعلق بالتخطيط العسكري وهيمنتهم على المعلومات والمعطيات التي لا يستطيع أحد سواهم الوصول أليها أو اختراقها. والمركز الوحيد الذي ساهم بتوجيه الإستراتيجية الفرنسية هو مركز "التقييمات و التوجهات المستقبلية"، ويعود في ملكيته إلى وزارة الدفاع. أما الجامعات الفرنسية فلم تعرف "علم الإستراتيجية" كتخصص، فهي تلحقه بالعلوم السياسية والتي لا تعطيه أهمية كبيرة أو عميقة.

3ـ النظام الإستراتيجي.

أ ـ مفهوم ونظرية النظام الإستراتيجي.

وضع عالم الأحياء النمساوي Ludwig von Bertalanffy (1901ـ1972)، نظريته "النظرية العامة للأنظمة" وذلك في كتابه " GeneralSystem Theory " [33]، وقد كتب عنها العديد من الأبحاث و المؤلفات [34]. عرفت هذه النظرية في البداية داخل أوساط العلوم البيولوجية ثم انتقلت إلى العلوم الأخرى، لاسيما العلوم الاجتماعية، وبشكل خاص في العلوم السياسية من خلال David Eston [35]. كما أن هذه النظرية عرفت طريقا لها إلى العلاقات الدولية بواسطة Morton Kaplan و Karl Deutsch في الولايات المتحدة، و Marcel Merle في فرنسا [36]. لكن هذه النظرية لم تعرف امتدادا لها نحو النظرية الإستراتيجية ،باستثناء محاولة

---

[33] - Ludwig von Bertalanffy, General System Theory: Foundations, Development, Applications (George Braziller, 1976).

[34] - An Outline of General System Theory, British Journal for the Philosophy of Science 1, p.139-164 ؛General system theory - A new approach to unity of science (Symposium), Human Biology, Dec 1951, Vol. 23, p. 303-361.

[35]ـ انظر كتاب، دافيد إستون، " تحليل النظام السياسي"، بالفرنسية (Analyse du système politique)،باريس،دار نشر Armand Colin،1974.

[36] - Marcel Merle, « Sociologie des relations internationales »,Paris, Dalloz, 1977.

جادة قام بها ضابط بحري أرجنتيني هو Pablo Oscar Mazzoni، وفي وقت متأخر على يد الجنرال Warden في كتابه "العدو كنظام". مع ذلك، النظرية العامة للأنظمة استطاعت الدخول إلى الإستراتيجية لتبين كم أصبح هذا العلم معقدا في العصر الحديث.

قدم Ludwig von Bertalanffy في عام 1937 مفهوم "النظام المفتوح"، ثم قام بتطويره شيئا فشيئا إلى أن وصل إلى "النظرية العامة للأنظمة". يقول العالم النمساوي في كتابه :"هدف هذه النظرية هو الوصول إلى مبادئ موضحة للكون أو العالم الذي نعتبره كنظام، وبمساعدة هذه المبادئ يمكننا تصميم أو "نمذجة"(من نموذج) الحقيقة"، ويتابع قائلا :" يوجد أنظمة في كل مكان". ولكن ما هو النظام أو ما مفهومه بشكل عام ؟إن الشهرة التي يتمتع بها هذا المصطلح يجب ألا تضعنا في موقف مفهومي غامض، حيث الكثير من علماء السياسة تحدثوا عن الأنظمة السياسية Système، في الوقت الذي تحدثوا فيه مسبقا عن النظام السياسي بمعنى régime ،وذلك من غير تغيرات جوهرية بالمعنى القانوني أو الوصفي. النظام système هو مفهوم عصري نستخدمه مع محتوى أشمل و أعم. ويعرف الإبستمولوجي Paul Weiss النظام :" هو كل ما يملك التجانس بشكل كافٍ وذلك من أجل أن يستحق الاسم". مع ذلك نقول بأن نظرية الأنظمة هي أكثر تعقيدا بكثير.

النظام عند Ludwig von Bertalanffy هو :"كلٌ منظمٌ والذي فيه جميع العناصر في علاقة قوية ويمتلك تنظيما داخليا. إنه ينبثق في بيئة فيها الإجبار والقسر ويستقبل المطالبات، ثم يتصرف منتجا القرارات. أيضا هناك تيارا من التبادلات المستمرة تقام بين النظام وبيئته، مع آلية من مفعول رجعي يضمن استقراره". (من كتابه المشار آليه سابقا). هناك العديد من الانتقادات و الأفكار الإيديولوجية وجهت الاتهامات إلى منظري التيار الذي ينظر "للنظام" Système، منها أنه نقل عملية الصراع وحاول ترقية أو إعلاء نموذج اجتماعي نظري واحد ومتفرد من اجل شرعنة الفكر المحافظ.

إن "النظرية العامة للأنظمة" يمكنها أن تسمح بإقامة نماذج إستراتيجية تأخذ بالحسبان تداخل الإستراتيجيات في العصر الحديث، وتوضح كيف يستطيع الفاعلون في هذا الميدان الحفاظ على هامش للمناورة يمكنهم استخدامه. فالصراع، هو أكثر مما كان في الماضي، شكلا من الاتصال و التنظيم.فهذا المفهوم لا يمكن أن يصل إلى تحديد أو حتمية "نظامية" (من نظام) والتي ستصل إلى إنكار كل الخطوات الإستراتيجية، فهذه الأخيرة "الخطوات الإستراتيجية" تبقى وبشكل واسع مؤسسة على مبادرة الفاعل، سلوكه وتصرفه. عمليا، وبشكل أولي، يمكننا القول أن الخطوة القادمة من نظرية النظام، تتكامل مع الخطوة الإستراتيجية.

ب ـ نظام إستراتيجي ونظام تقني.

هناك أهمية وفائدة جوهرية للتحليل النظامي أو "النسقي" وهي الإصرار على الشمولية وعلى العلاقات الدائمة بين العناصر التي تؤلف النظام. هذه المقاربة هي بشكل خاص تم تبنيها من أجل البنى المعقدة التي لا تختزل في فئة واحدة من العناصر أو الظواهر. و الإستراتيجية عرفت بشكل دقيق، في الحياة المعاصرة، تطورا نحو تعقيدات متنامية تجعلها تختلف أكثر فأكثر عن جميع النماذج الإستراتيجية التي وجدت في الماضي. ويمكننا التعرف على أهمية هذا التطور من خلال إجراء مقاربة مع مفهوم مركزي لتحليل المجتمعات المعاصرة وهو " التقني". في عام 1977 قام Jacques Ellul بتطبيق التحليل النظامي او النسقي على التحليل التقني، ورأى أن الصفات التي نعطيها للنظام التقني هي متحولة أو متنقلة من غير خضوعها لتغييرات، ويمكن انتقالها إلى النظام الإستراتيجي.

ووفق Jacques Ellul هناك تماثل حقيقي وواضح يبدأ مع تعريف قاعدة المفهوم. فالتقني بالنسبة له "هو الانشغال المسبق بالبحث في جميع الأشياء عن المنهج الأكثر فعّالية". يميز Jacques Ellul ثماني صفات للظاهرة التقنية :

1ـ **الاستقلالية** : يعني أن التقني لا يتبع إلا نفسه، يخط طريقه لوحده، إنه عامل أساسي وجوهري ولا يمكن أن يكون في المرتبة الثانية، ويجب أن يعتبر جهازا قائما بحد ذاته، قادر على حكم نفسه، إنه هدف بحد ذاته [37]. هنا يمكننا أن نلاحظ تحليلا يتعلق بالإستراتيجية إنه البحث عن عقلانية تعتمد، في أقل تقدير، الغايات السياسية. فالإستراتيجية تمحور قواعدها الخاصة وتبحث للعمل داخل نظام مغلق.وهنا نرى انحرافا معينا، رفضه Clausewitz بقوة والذي يحمل الوسائل إلى غايات ما، وبالتالي الحرب بهدف سياسي، ولكن في العموم هذا اتجاه يمكن أن نجده في جميع العصور وضمن مختلف الفعاليات الإنسانية، وخاصة عندما يكون هناك خوف قادم من الخارج [38].

2ـ **الوحدة**: حيث التقنيات مرتبطة بعضها ببعض بشكل لا يمكن يوجد احدها من غير الآخر أو بواسطته، وهي تابعة لبعضها بعض. وتجزأ الإستراتيجية المعاصرة سيذهب في نفس السياق و المعنى.حيث تم الانتقال من إستراتيجية الردع إلى إستراتيجية الفعل، من الإستراتيجية النووية إلى الحرب الثورية و ثم التدميرية. كل هذه العناصر و المركبات مرتبطة ببعضها. ومن الأفكار القوية للإستراتيجية النووية بعد التردد، هي أن الذرة لا يمكنها أن تكون إلا في خدمة حماية المصالح الحيوية.الإستراتيجية المعاصرة يتم فهمها وإدراكها "ككل" مع تفرعات أخرى، و "كنظام" مؤلف من تعدد آخر يأتي تحت النظام وهو متشابك متداخل.

3ـ **الشمولية والعمومية** : النظام التقني يمتد إلى جميع المجالات، حيث يوجد في البداية شمولية تتعلق بالبيئة ومناخ العمل والفعاليات الإنسانية.ثم

---

[37]ـ Jacques Ellul، " النظام التقني"،بالفرنسية،صادر في باريس، دار نشر Calmann-Lévy, Liberté de l'esprit،1977، الصفحة 137 وما بعد.

[38]ـ المرجع السابق ، الصفحة 138.

يوجد شمولية جغرافية ،فالنظام التقني يشمل جميع البلدان [39]. هاتان الصفتان توجدان في الإستراتيجية المعاصرة.إن شمولية أو عمومية المجالات هي حقيقة واقعية لأن الإستراتيجية كما رأينا سابقا انتقلت من فضائها العسكري أو الحربي لكي يتم تطبيقها في مختلف الحقول والميادين، إذا لا يمكن وضع حد لها في المجال الحربي، بل يتم وضعها بشكل كامل وشامل لجميع الشؤون ومن بينها العسكرية، كما الاقتصادية والثقافية..الخ.

4ـ **الجمع أو "التجميع"** : يمكننا أن ندرس ظاهرة تقنية والتي بشكل عام لا يوجد دراسة أخرى خاصة درس هذا الجانب فيها أو ذاك. فالجمع هو الوجه الآخر للتخصيص [40].

5ـ **النمو الذاتي** : الدارس للنظام التقني يراه يتطور بشكل ذاتي أو من خلال قوة داخلية ومن غير تدخل كبير أو حاسم من قبل الإنسان أراد ذلك أم لم يرد [41]. ففي الإستراتيجية هذه الصفة تتجسد في الثنائي او المركب العسكري/الصناعي. حيث أن الباحثين، المصنعين للأسلحة ورؤساء الأركان محاصرين بالخوف من يتم تجاوزهم أو تخطيهم ،وذلك بسبب السباق في التطوير الذي يؤدي في النهاية إلى تطور ذاتي داخلي في قلب الإستراتيجية.

6ـ **الآلية أو التلقائية** : ففي كل حالة أو وضع جديد ،وفي كل ميدان أو حقل جديد ،التقنيون يتوافقون في النتائج وفي شكل مستقل عن القرار الإنساني. فالآلية لا تتخلى أو تتنازل في بداية الاختيار، بل تعمل على الاختيار من بين كل الاختيارات التي وضعت، بمعنى تختار ما هو متوافق مع الإستراتيجية وما هو غير متوافق [42]. في الواقعة هذه التلقائية أو الآلية تصل وتبلغ النموذج العلمي.

---

[39]ـ المرجع السابق،الصفحة 186.

[40]ـ المرجع السابق، الصفحة 219 ـ 220.

[41]ـ المرجع السابق، الصفحة 229.

[42]ـ المرجع السابق، الصفحة 253.

7ـ **التقدم السببي و غياب الغاية**: إن التقني لا يتطور ضمن مفهوم الوصول إلى غايات يريد متابعتها، ولكن ضمن إمكانيات للتطور موجودة بشكل مسبق [43].ففي العصر النووي، الترسانة النووية يمكن فهمها ضمن رؤية تقنية مفتوحة على البحث، أكثر من رؤيتها موجدة لغايات سياسية أو تتعلق بالخصم أو المنافس. والمشروع الذي وضعه الرئيس الأمريكي الأسبق ريغان حول "مبادرة الدفاع الإستراتيجي" كان له غايات سياسية، ولكنه لم يوجد على أرض الواقع إلا بعد مشروع عملاق عرف ميلاده في المخابر، وبعد أبحاث ليس لها أهداف سياسية محددة أو نوعية.

8ـ **السرعة**: لقد عرف النظام الإستراتيجي سرعة كبيرة لم يشهدها من قبل منذ عام 1945، ليس فقط في الجوانب التقنية، بل أيضا في أبعاده السياسية. ربما أصابه التباطؤ بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، ولكن فقط ضمن المجال العلمي. أما ظهور وتتعد الأزمات المحلية والإقليمية فربما أو ستؤدي إلى ظهور اقتراحات جديدة تقود بدورها إلى تسارع جديد في السنوات القادمة.

ت ـ شمولية النظام.

تحدثنا سابقا أن التغيرات و التحولات البنيوية التي أحدثتها التطورات المعقدة في جميع مستويات الإستراتيجية، جعلت من غير الممكن أن يكتفي أي جزء من النظام بنفسه أو أن يوضع في التنفيذ كجزء يعمل لوحده، بل لا بد أن يعمل كمركب من جزء متكامل.

على الصعيد التقني: يتم الحديث اليوم بشكل أكبر عن نظام الأسلحة. أيام الأسلحة الكلاسيكية كانت استخدامها بسيط، بمعنى نحدد نقطة ما ويتم الإطلاق عليها، مع الأسلحة الحديثة نحن بحاجة لبيئة فيها الكثير من الحسابات المعقدة والمتعقلة، من غير ذلك لا نستطيع استخدام هذه الأسلحة.فالصواريخ مثلا لا من برمجتها قبل إطلاقها. إن استخدام الأسلحة

---

[43]ـ المرجع السابق، الصفحة 280.

الحديثة يترافق بعناصر أخر تعتمد على المعلومات، الاتصالات، القرار و أشياء أخرى.

فالمعومات ليست هي نفسها كما كانت في الماضي، يقدمها مجموعة من المخبرين وتراقب من قبل الأجهزة والمؤسسات العسكرية ثم توجه لقلة من المقررين. فالمعلومات اليوم مطلوبة في جميع الميادين وتقوم فيها وفي معظم الأحيان وكالات متخصصة تخضع لسلطة مدنية، مع وسائل بالغة التقدم والتعقيد، تكنولوجية و إنسانية.ثم توزع بطرق غامضة بسرعة كبيرة وعلى جميع المستويات المدنية والعسكرية وغيرها، وذلك من أجل الوصول وضمان تحقيق بيئة إستراتيجية متكاملة تستطيع التحرك بأفضل وأحسن حال أو شكل [44].

أما الاتصالات فهي مضمونة من خلال مجموعة من الوسائل السريعة و الفعالة، ولكن يمكن تعطيلها بشكل سريع أيضا.من هنا جاء التطور الكبير في وسائل الحماية و السرية. والصراع حول أنظمة الاتصالات عرف تطورا ضخما خلال الحرب العالمية الثانية.فيما يتعلق بالقرار، فقد أصبح من الواجب السيطرة على معطيات كثيرة ومختلفة في هذا الشأن، كما أن السلطة المدنية لم تعد تسمح للسلطة العسكرية بالحرية المطلقة في اختيار الوسائل والطرق.

من الآن فصاعدا أصبحت وسئل المساندة الدائمة والضخمة تحقق نتائج كبيرة على الصعيد الإستراتيجي، مثل الدعم اللوجستي وغيره، التي تقدم دعما كبيرا للقوات وتبقى في اتصال معها، وتجعلها قادرة على الحفاظ على مستواها لمدة كبيرة، كما أنها تقوم بترميم كل ما يتعرض للتدمير وبسرعة استثنائية.

---

[44] ـ انظر ، Paul BRACKEN، "The Command and Control of Nuclear Forces"، صادر عن New Haven-London, Yale University Press، 1983، الصفحة 21.

على الصعيد الإستراتيجي: النظام الإستراتيجي هو تنظيم جميع القوى التي توضع في العمل وفي خدمة الإستراتيجية العامة، الشاملة أو الوطنية. هذا النظام يتجاوز عمليات الفصل والتمييز المعروفة بين السياسة الداخلية والسياسة الخارجية، وبين الدبلوماسية و الإستراتيجية في تعريفها الكلاسيكي، بين المؤسسات وجماعات الضغط.؛في عملية هندسية معقدة تنقسم إلى فضائين أساسيين، مادي مثل (القوى) وثقافي مثل (المذاهب والتيارات، الثقافة الإستراتيجية)، و معنوي مثل (الانتماء والارتباط بالأمة، ترابط وتعاون النخب الحاكمة)، وهذا ما سماه بعض الإستراتيجيين " المعنوي الإستراتيجي" [45].

هذان الفضاءان يتبعان أو يصبهما تأثير خاضع للبيئة أو المناخ الذي يوجدان فيه وهو ما نسميه "المدخلات"، ويحاولان التفاعل معه من خلال تثبيت الأهداف الحالية أو الكامنة والتي في النهاية تتعارض مع أهداف العدو أو الخصم. هذه الأهداف متغيرة ومتبدلة حتى يكون لديها استعداد المواجهة مع الظروف والمتغيرات. أما وضعها في التطبيق يتطلب قرارات ستصطدم بعمل النظام وسيره مثل (البيروقراطية، الدعم اللوجستي والمساندة، والحالة الفنية و التقنية)؛هذا الاصطدام يترجم باتخاذ قرارات خاطئة أو بعدم اتخاذ القرار.

ث ـ في تداخل العلاقة بين العوامل الداخلية و الصراعات الدولية.

بالتأكيد هناك قيمة كبيرة للمصلحة التي تحددها العوامل الداخلية للإستراتيجية وللسياسة الخارجية.مع ذلك يجب الابتعاد نهائيا أو تجنب فقدان الرؤية الصحيحة فيما يتعلق بالعامل المركزي أو الأساسي، هذا العامل هو أن الإستراتيجية تفترض دائما خصما أو منافسا محددا. إذا لا بد من وجود عدو موضوعي أو يمكن الإشارة إليه ومعرفته بطريقة ما، (كما كان الاتحاد

---

[45]ـ نجد هذه التسمية في كتاب الأميرال Castex " النظريات الإستراتيجية"،وهو مرجع سابق مرَّ معنا في بداية الكتاب،وردت التسمية في الجزء الرابع من كتابه في الفصل الثاني عشر.

السوفييتي مثلا موضع انشغال دائم للولايات المتحدة أو للدول الغربية بشكل عام). Colin Gray [46] تحدث عن وجود طبيعتين لسباق التسلح، هاتان الطبيعتان ناتجتان عن ظاهرة الفعل/ورد الفعل، والتي أصبحت أكثر تعقيدا من خلال تدخل الضغوطات الداخلية.

إن وجود سباق للتسلح يفترض التنافس بين اثنين على الأقل. والأمثلة التاريخية هي كثيرة على هذه الحالة، مثل التنافس البحري بين ألمانيا و إنكلترا في بداية القرن العشرين، التنافس البري بين فرنسا وألمانيا بين عامي 1870.1940، الصراع والتنافس الأمريكي ـ السوفييتي طيلة الحرب الباردة. يمكن أن يبدأ السباق من قبل بلد يريد ردع كل التصرفات العدوانية من خلال إظهار قوته الهجومية و الدفاعية، أو من اجل دعم قوته الدبلوماسية، وهي عوامل تتعلق هنا بالسياسة الخارجية.وأيضا يمكن لسباق التسلح أن يبدأ لأنه من الضروري والمفيد عند العديد من الفاعلين والمستفيدين في هذا المضمار. ويمكن أن يكون نتيجة لعملية سياسية، كما فعل الرئيس جون كنيدي بالحديث عن صاروخ gap أثناء حملته الانتخابية في عام 1960.

ColinGray يحدد ثمانية عوامل أو تأثيرات داخلية محرضة أو تشترط سباق التسلح، وهي تظهر كحالة إجبارية ناتجة عن تهديدات خارجية، هذه العوامل هي [47]:

ـ الجمود

ـ التقنية

ـ مصالح المقررين

ـ وباء الخوف من أن يسبقك الآخرون

---

[46] - Colin GRAY , « The Soviet American Arms Race », Lexington, D.C. Heath, 1976; and, " The Urge to Compete: Rationale for Arms Racing", World Politics, 1974, P.207.

[47] - Colin GRAY, « The Arms Race Phenomenon »,in George H. Quester, ed., American Defense Policy , P. 146-147.

- التخطيط
- المذهب الإستراتيجي
- الحكومة وعلاقتها مع الجيش
- الموقع الجغرافي

هذا المثال عن التسليح يظهر الطبيعة المزدوجة و المعقدة لسباق التسلح والذي لا يمكن اختزاله إلى فئة واحدة من العوامل. من هنا تأتي فائدة التحليل "النظامي" (من نظام)، والذي يأخذ بالحسبان هذا التراكب imbrication بين العوامل الداخلية و العوامل الخارجية.

4 ـ الاستشراف الإستراتيجي.

ـ مفهوم "الثورة داخل الشؤون العسكرية".

إن فكرة النظام بدأت في أخذ مكانها داخل المفردات الإستراتيجية، لاسيما بعد دخول فكرة الثورة في الشؤون العسكرية. أتت هذه الثورة في الشؤون العسكرية من قبل الولايات المتحدة الأميركية، وذلك من خلال أدب جديد وغزير تناول هذا المفهوم مع مطلع التسعينات. حاول الكثير من المنظرين البحث عن أصول بعيدة لمفهوم الثورة في الشؤون العسكرية، حتى أن بعضهم عاد به إلى منتصف القرن التاسع عشر، ولكن هذا المفهوم يبدو انه أحدث من ذلك بكثير. فقد عمد السوفييت إلى تطوير فكرة "الثورة في الأشياء العسكرية" [48] منذ عام 1963، وفي عام 1980 فتحوا حوارا حول "الطرق التكتيكية الجديدة"، حتى أن بعض المعلقين أطلق عليه "الثورة التكتيكية" [49].

إن مصطلح Revolution in Military Affairs (RMA)،

---

[48] - Jean-Christophe ROMER, « La pensée stratégique russe au XXe siècle, p.47.

[49] - Philip A. KARBER, « The Tactical Revolution in Soviet Military Doctrine », Carlisle Barracks, US Army War College, 1983.

ظهر في المفردات الأميركية في سنوات التسعينات وذلك بتحريض من مدير Net Assessment Office of Pentagone، وهو Andrew w. Marshall ، حيث وقف مع الفكر القائلة بأن الثورة العميقة التي نتجت عن التجديدات التقنية سيكون لها نتائج مذهبية doctrinales كبيرة. أما (RMA) فقد كان موضوعا لتقرير سري في عام 1992 ، ثم تم نشره في السنة التالية. إذا الحوار حول المصطلح انطلق وبقوة، إن كان بين المحللين أو في جميع وحدات الجيش، والتي بدورها وضعت مجموعات متخصصة هدفها الوصل إلى بناء مذهب جديد.

إن الفكرة الأساسية للمفهوم ترتكز على أن الحرب من الآن فصاعدا قد تغيرت بشكل جذري فيما يتعلق بطريقة وآلية العمل، أو بطبيعتها، لاسيما مع قدوم وسائل أخرى جديدة في المراقبة و بناء جيوش لها قدرات كبيرة ودقيقة في نفس الوقت. أما الشجاعة والإرادة الإنسانية فقد وجدت أيضا من الآن فصاعدا أمام أو في مواجهة التقنية. فالتقنية تحكم في جميع المجالات، إنها تفرض تغيرات مذهبية وعملياتية لها اتساع كبير. وقد تحدث البعض، مثل الأميرال " Owens" عن مفهوم جديد في هذا المضمار وهو "نظام الأنظمة" من أجل الإشارة إلى أنه لا يوجد أي قطاع من السياسة أو الإستراتيجية لم تتدخل هذه التحولات الجديدة.

وقد ظهرت العديد من الكتب لاقت نجاحا كبيرا في هذا الموضوع، لاسيما War and Anti War في عام 1993 لمؤلفه Alvin and Heidi Toffler، وقد ترجم بشكل سريع إلى الكثير من اللغات، ترجمة ساهمت في تعميم ونشر فكر أن الحرب هي "كبسة زر".

إن مفهوم "الثورة في الشؤون العسكرية" قدم في مراحل متعددة بشكل مغال فيه، حتى أصبح البعض يعتقده أكثر أهمية من الثورة التي صاحبت السلاح النووي نفسه.أما المعلومات ستصبح من الآن فصاعدا من المفردات التي تضم بقوة على الإستراتيجية. حيث ستسمح بإبعاد الشك وعدم

اليقين من أمام كل من يستخدمها ويسيطر عليها، ستساعد في معرفة ماذا نهاجم، كيف ومتى. حتى أن المرجع الأميركي المتعلق بالعمليات " FM 100-5" سيضاف إليه ملحقا تحت اسم " عمليات المعلومات" FM 100-6 [50].

هذان المرجعان سيضعان في التنفيذ مفاهيم عملياتية جديدة : **المناورة الكبرى**، والتي تؤسس على القدرة في السيطرة على المعلومات والحركة ؛ **الالتزام الدقيق**، وفيه تحدد الوحدات أهدافها وكيفية الوصل إليها بجهد أقل؛ **الحماية الكاملة**، والتي تضمن الحرية الكاملة في الفعل وتقدر الخسائر ؛ اللوجستيك المدمج، حيث يحدث التوافق من خلاله في تقنيات المعلومات التي تسمح بدورها وسائل نقل تؤدي لردة فعل سريعة في الأزمات وعلى جميع المستويات.

- في نقد مفهوم وخطاب "الثورة في الشؤون العسكرية".

لقد كرّس الحوار حول مفهوم "الثورة في الشؤون العسكرية" نفسه ليقول بضرورة وجود هندسة شاملة و تماسك بين الجوانب التقنية و العملياتية. نتذكر هنا أن مساعد وزير الدفاع الأميركي Edward Warner يعرف الثورة في الشؤون العسكرية كتوافق في تقنيات جديدة، وتغيرات مذهبية، ثم بتغيرات في البنى. ويضيف أن الكثير من التغيرات هي متطورة عن أشياء سابقة أو عن غيرها، أكثر مما هي تغيرات ثورية [51]، وهذا ما يقود للقول بأن تلك التحولات و التغيرات الجذرية هي غامضة أو مبهمة.

أما البحث عن المعلومات فهو معطى دائم في تاريخ الإستراتيجية، وعدما نغير كلمة "معلومات" بكلمة أخرى هي "مخابرات" فهذا ليس مبررا للقول بأن تغيرا جذريا قد حصل [52].ويتابع المتشككون في هذه

---

[50] - Michael D. Stany and Charles W. Arneson, "FM 100-6: Informations Operations", Military Review,1996.

[51] - In, Jane's Defense Weekly, 30 حزيران, 1997, P.32.

[52] - Richard J. Harknett, « Information Warfare and Deterrence », ed., Parameters, 1996, P. 93.

"الثورة" القول أو التساؤل: هل المخابرات أو المعلومات تستطيع بشكل فعلي القضاء على الشك وعدم اليقين، محولة الحرب بذلك إلى لعبة؟ أما جوابهم فهو أن العامل الإنساني يبقى له دور كبير في الموضوع، بحيث أنا لا نستطيع إعطاء أو توصيف ردة الفعل الإنسانية بشكل ناجز وكامل. وقد كانت الحرب في كوسوفو و حرب الخليج أمثلة جيدة على الاختلاف في وجهات النظر حول "الثورة داخل الشؤون العسكرية" [53].

- ماهية ومعنى خطاب "الثورة في الشؤون العسكرية".

الثورة داخل الشؤون العسكرية كانت خطابا في البداية أكثر مما هي إشارة على متغيرات تقنية، كما كانت في البداية "مبادرة الدفاع الإستراتيجي" التي وضعها الرئيس الأسبق ريغان.ولكن هذه الإثارة و الانتشار النظري كانت نتيجة لمفهوم يحاول الإجابة على منطقين: داخلي وخارجي. "فالثورة" هذه، كانت عملية من أجل شرعنة بنية وتطوير القوى المسلحة الأميركية. والمقصود هنا أن وزارة الدفاع الأميركية "البنتاغون" قد تبنت التغيرات الكبيرة وفي جميع الميادين والتي تظهر اليوم بشكل كبير أو يتم إنتاجها على جميع المستويات، أو هي التجديد العسكري نفسه [54].إن خطاب هذه "الثورة" هو موضوع محرك على صعيد المذاهب العسكرية وخاصة في داخل المؤسسة العسكرية، وهو فعَّال على الصعيد السياسي في مواجهة محاولات تخفيض أو تقليص الميزانيات العسكرية.

أيضا خطاب "الثورة" يشكل رسالة هامة يمكن توجيهها إلى الخارج.فالولايات المتحدة تقترح من جديد نموذجا للعالم بأسره، فهي تبين وفي

---

[53] - Barry D. Watts, « Clausewitzian Friction and Future War », Washington, National Defense University, 1996.

[54] ــ في الولايات المتحدة كان هناك إستراتيجية متعارف عليها أو "تقليدية" وضعها Institute for National Strategic Studies،وهي في الواقع تتعارض مع الإستراتيجية أو مع "الثورة داخل الشؤون العسكرية التي نتحدث عنها.

نفس الوقت أنها ما تزال متقدمة على العالم ومهما حصل، وأن المستقبل سيكون ملك الجيوش التي تتطابق مع هذا النموذج، أي النموذج الأميركي [55].أما الذين يرفضون هذا التطور الإجباري فهم في نظر أصحاب "الثورة" ليسوا إلا متأخرين عن التطور. ولكن تجربة اللحاق بالولايات المتحدة من قبل الدول العظمى مكلفة جدا وخاصة فيما يتعلق بالتحديث في الشؤون العسكرية.

فمن جهة، محاولة تقليد الولايات المتحدة تعني البقاء تحت خط قوتها، والسبب هو عدم وجود الإمكانيات أو حتى امتلاك مناهج عمل وسير التحديث الأميركي. ومن جهة أخرى، هناك العديد من القوى ترى أن الوسائل التقنية المعروضة من قبل مفهوم"الثورة داخل الشؤون العسكرية" ربما تكون مفيدة من اجل وضع أو بناء إستراتيجية ليس في الحقل العسكري فقط، بل في جميع المجالات.إذا ، وفي قراءتنا لمفهوم أو خطاب "الثورة داخل الشؤون العسكرية" نعرف ما هي التطبيقات العملية التي يستطيع أن يقدمها مفهوم يتصف بأنه مجرد أكثر من مفهوم "النظام" الذي أوردناه سابقا. "فالثورة" هنا تذكرنا بضرورة فهم وإدراك الإستراتيجية بشكلها الشمولي وليس الجزئي، مهما كانت إستراتيجية تقنية أو تعتمد مذهبا بحد ذاته. أيضا، تحليل هذا الخطاب يسمح بمعرفة الخلفية الإيديولوجية للمفاهيم التي تقدم نفسها على أنها مفاهيم تقنية خالصة، وهي في الواقع تضع نفسها في خدمة وجهة نظر سياسية أو مشروع سياسي.

في النهاية، يرى الكثير من الإستراتيجيين أن البعد العسكري ليس إلا عنصر من العناصر الأخرى للإستراتيجية، فاليوم هناك صعود كبير وقوي للبعد الاقتصادي، طبعا من غير أن ننسى الثورة المعلوماتية التي لا تقل أهمية.إذا النظرة وحيدة الجانب أو التي تعتمد البعد العسكري فقط هي في

---

[55] - Jacob W. KIPP, « Confronting the RMA with Russia », Military Review,1997.

نفس الوقت، نزعة ذاتية أو استعلائية تهدف للرفع من شأن بلد على حساب البلدان الأخرى، وتتجاهل التعددية الثقافية بين الأمم و تنطلق من موقف قومي يمكن أن نصفه بالتطرف، وهي أيضا معرفة غير عميقة بطبيعة الإستراتيجية، ومؤسسة على علاقة صراعية conflictuel و على إمكانية تحقيق إقصاء نهائي يصل لدرجة تغيب الخصم من الوجود نهائيا. إن مفهوم البعد الواحد للإستراتيجية ليس بمفهوم جديد فقد تحدث عنه إستراتيجيو الصين لاسيما Sun Zi عندما قال :" الحرب هي ميدان الحياة والموت، إنها الطريق الذي يؤدي للحياة أو للعدم والفناء" [56].

إذا نظرنا بعمق إلى تاريخ التحولات و التغيرات التي استمرت منذ 2500 عام، وبشكل خاص تلك التحولات التي نراها اليوم أمام أعيننا، نستطيع القول إن حكمة هذا الإستراتيجي الصيني بقيت وستكون الأساس أو جوهر كل فكر إستراتيجي. وهذا ما سنتابعه في دراسة لاحقة لهذا الكتاب.

بليوغرافيا [57]

إن المهتم أو المراقب للعلوم الإستراتيجية يرى وبوضوح الندرة في وجود المراجع الإستراتيجية الكبرى.ويقسم كبار الإستراتيجيين ومعهم مؤرخي الإستراتيجية هذه المراجع الكبرى إلى ثلاث مجموعات مختلفة :

الأولى ـ المراجع العسكرية و الدفاعية.

في هذا النوع من المراجع يمكننا أن نرى المقالات والأبحاث الإستراتيجية.ولكن هذه المراجع تعطي الأولوية للقضايا و الإشكالية الحالية و لتحليلات الدفاع. ويمكننا إعطاء بعض الأمثلة على تواجد هذه المراجع.

---

[56]ـ من كتاب الإستراتيجي الصيني ،صن زي، " فن الحرب"، الصفحة 99.

[57]ـ إن المراجع الأساسية للكتاب هي تلك التي ظهرت تحت الهامش في داخل الكتاب،أما المراجع التي نذكرها هنا تهدف إلى تقديم عناوين وأسماء أخرى للطالب الذي يرد تعميق دراسته في هذه العلوم.